فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ

فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ

إبراهيم بن سعيد الدعجاني

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0562-1

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

إهداء 7

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا 9

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ 33

فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ 37

وَلا تَنْهَرْهُمَا 47

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ 49

وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا 55

قصص قصيره مترجمه

الطاسة الخشبية 79

ذات العين الواحدة 81

من كتاب الله 83

من أقوال المصطفى 85

قصص من التأريخ 89

إهداء ..

إحترقــت في نُــورهــا اللامــي
وأحيــت فــيَّ الضمـيــر السـامــي
ورمَّمت إنهيــارات أحــلامي
أُمي... أُمي... أُمي...

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

في اليوم الذي حلَّ فيه المساء بطعم الموت رحل الشيخ صالح عن الدنيا وترك زوجته في جوف الوحدة مسربلة في الأحزان. وفي الليلة الأخيرة من العزاء مسحت بيدها المرتعشة على رأس حفيدها سعد.. وقالت:

– كان جدّك رحمه الله يتمنى أن يراك طبيباً قبل أن يرحل.

رد بصوت متهدج:

– يا جدتي سوف أكون في كلية الطب السنة القادمة إن شاء الله، أدعي لي فأنت صالحة كأسمك وربّي يقبل دعاءك.

كانت صالحة هادئة الملامح بيضاء مشربة بالحمرة، ارتسم على صفحها جمال وضاء رغم التجاعيد الكاسية وجهها، والهشاشة المنازعة عظامها.

وبعيد انقضاء عدَّتها المبذولة في بكاء الحبيب تاقت للصلاة في الحرم المكي لتروي عطشها من فيض الروحانية. لا تلبث أن تُصفع بأعذار ابنها عدي الذي رجاها أن تصلّي فروضها في البيت فأجرها أجر من صلّى في المسجد الحرام لأن مكة كلّها حرم. تصارعت معاذيره في أعماقها بين الفرح والحزن، بثَّت فيها أحاسيس خوف الإبن على أمه لكن غمرتها في أحزان الحرمان من الصلاة في مهوى الفؤاد ونبض الراحات والهناء.

ثمة أمور لم تعها بطيبة قلبها وبياض سريرتها، فالإبن الوحيد «عدي» الضخم الجثة قد تضخم في عقله النمرود الذي استسقى من

دبال زوجته فتحّول من حمل أمه الوديع إلى شيء آخر لم تلحظه عين الأمومه المتسامحه.

في غياب صرامة ابيه رحمه الله غرست زوجته فريدة نصال حقدها الدفين في عقله، لاكت قلبه بعفونة اضراسها، ولحدت فكره في مقبرة حقدها حتى إذا ما تباكت وذرفت دمعات التماسيح استفز الألم ضعفه فخرّ صريعاً تحت قدميها.

ملأت قلبه بأحلام الثراء وحياة الأغنياء حتى أقنعته ببيع آخر قلاع الذكريات، بيت العائلة الذي آوى الحب الكبير بجوار البيت الحرام.

حاول عدي تمرير فكرة بيع البيت على أمه لكنها رفضت بشدة، فالبيت هو مستودع ذكرياتها، مطبوع في أركانه معزوفات الحب مع رفيق دربها الذي غيبه الموت، ثم إن مجاورة البيت الحرام مغبوطٌ عليها كل المجاورين.

استطاعت فريده بدهائها دفعه لإقناع أُمه بأن البيت سيكون من ضمن مشروع توسعة الحرم، وأن التعويض لا يساوي نصف المبلغ المعروض عليه من التاجر صديق باشا. فوافقت على مضض وقد اشتمت رائحة الكذب في كلامه، تمتمت...

- بلاش اخسر إبني الوحيد.

علت الفرحة على وجوه الجميع وملأت التبريكات أركان كتابة عدل بعد توقيع صك البيع بمبلغ سبعة مليون ريال. لم تكن صالحة لتبتسم أو تضحك إلا إرضاءً لابنها ولم تكن لتوافق على السكن بعيداً عن مهوى فؤادها - البيت الحرام - حتى لو بكنوز الدنيا، ولم تكن لتوافق على الانسلاخ عن بيتها المعبق برائحة الشيخ صالح، وذكريات زواجها، ومراهقتها، وشيخوختها، لثلاثين عاماً مضت طبعت في كل شبر منه دمعات، ضحكات، وأكوام من المشاعر الجميلة.

أودع عدي الشيك في حسابه البنكي وغيّر مساره نحو الغرب متجهاً إلى جدة فأشارت البوصلة إلى غروب شمس الذكريات إلا ما سكن منها في الذاكره الناعمة شتات. أما سعد فقرر البقاء عند خاله سالم في مكة ليرقب حلمه في كلية الطب حسب وصية جده وحلم جدته.

استأجر عدي غرفة في الفندق بجدة ريثما ينهي إجراءات شراء الفيلا الجديدة وشراء الأثاث. طلب من خدمة الغرف غطاء لتتدثر بها أمه على أريكة مقذوفة في أقصى الغرفه، نظرت إليها بعينيها المتعبتين وتمتمت...

- المبيت مؤقت، وفي البيت الجديد كل شيء سوف يسوى.

مضى يومان... والألم المتفاقم في عظامها الهشة من قسوة الأريكة وإلتفاف الأسفنج الحار على جسدها النحيل يدفعها إلى شد جسمها إلى الأعلى ثم الأسفل في ممارسة رياضية ترنو لتخفيف الألم المض الشديد المجتاح لعضلاتها المترهلة.

تحاملت على كل شيء حتى الأكل المكرور بطعم الألم والتعب الذي جمعته فريدة من البقالة المجاورة وحذرتها من طلب أي شيء من خدمة الغرف بزعم أن الأسعار «نار». كانت كل ما أشتد الألم أو وكز بطنها الجوع تمتمت...

- سأضحي قليلاً...

وبينما هي - ذات ليل - متهادية في روحانيات صلاة التهجد إذ بالهاتف يرن تبعه قرع شديد على الباب فقطعت صلاتها وفتحت الباب، إذ بفريدة مطلة عليها وقد سقطت عباءتها وازدحمت بالدموع على وجهها، وتخضبت بالكحل الأسـود، صاحت بارتعاد مزّق كلماتها...

- عـ عدي.. عـ عدي بيموت في العناية المركزة.

- ماذا بيموت..؟ عناية؟ إيش قولي...

جن جنونها على وحيدها فوضعت عباءتها على رأسها، قالت ودمعاتها تهطل على خدها..

- هيا إلى المستشفى..

ردت فريدة وهي تزفر من الخوف والإنهاك..

- ولكن الساعة الرابعه صباحاً الآن.. الزيارة ممنوعة..

خارت قواها وهي التي عاشت أيام سجينة في غرفة الفندق، كانت بالكاد ترى فيها ابنها، ارتمت على الأريكة لساعة حتى انشق الفجر من السماء، أتمت صلاتها ثم اقتعدت الأريكة مستقبلة القبلة تلهج له بالدعاء حتى نثرت الشمس أشعتها على الأرض ودبّت الحركة في الشارع فلبست عباءتها، واستقلت سيارة الأجرة إلى المستشفى.

دلفت إلى الباب الرئيسي للمستشفى فصاح عليها حارس الأمن بصوته الرخيم:

- يا حاجّة ممنوع.. ممنوع. الزيارة تبدأ الساعة الرابعة مساء.

- يا ولدي.. إبني في العنايه أخاف يموت وما شفته..

- يا أمي قلت لك ممنوع

سمع حوارهما رئيس الأمن القادم من الداخل، قال...

- يا محمد.. خليها تدخل..

- إيش إسم ولدك يا حاجة؟

- عدي صالح الصالح

اصطحبها رئيس الأمن إلى العناية المركزة، فرفعت الستارة إذ بعدي متخشباً على السرير والأجهزة مستبيحة كل جسدة، ترتسم

على عينيه المغمضتين وشفتيه المزرقّتين صرخات الألم، فلم تلبث أن أطلقت العنان لمشاعرها الفياضة، فصرخت بصوت مكتوم...

- يا اااا الله

ثم بكت وراحت تبلع النشيج حتى استطعمت مرارة الدمع المدرار على خديها. سمع الدكتور عبدالصبور نشيجها المكتوم...

- آيه يا حاجّة دا إبنك..؟!

- بشّرني الله يبشرك بالجنة... يا دكتور.

- إن شاء الله بسيطة أزمة تنفسية حادة من دخان الشيشة... إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثه يتحسن.

باستغراب...

- ماذا؟ دخان الشيشة!

تعقد جبينها من هول الخبر ثم انسلت بصمت، وجلست في صالة الانتظار حتى وصلت فريدة عند حلول المساء فبادرتها بسؤال مترع بالإندهاش وزفرات الحيرة والخوف.

- هل عدي شرب شيشة البارحة؟

أشاحت بوجهها وردّت بكلمات مثخنة بالاستفزاز وباشارات كأنها رقصات الموت...

- أجل على بالك إيه؟ كل يوم.. وكل ليلة.. مطاعم ومقاهي.. شيشه.. وأراجيل.. هذه جدة غيررر. نحن لسّه شباب.!!

فغرت فاها وصاحت مندهشة...

- آآآيه.. ؟!!

مرت أيام والإندهاش لم يبرح موطنه من عقلها ولم يتوقف عن مرافقة نبضها باعثة آلآم الخوف في حنايا قلبها. تشتت بين فجر الصدق

وألوان الكذب، لا تدري أتصدق المأفونة أم تصدق أمومتها المبثوثة في شرايين ذلك الضابط الرياضي الذي تأفف من إشعال سيجارة لصديقه ذات يوم.

إذن... طيلة الأيام الماضية والمأفونة تسرح وتمرح في المقاهي وهي بكل الأمراض المتمكنة من جسدها حبيسة غرفة صغيرة في الفندق... تساءلت:

– هل كان عدي «يشفط» قذارة الشيشة والأرجيلة في المقاهي ثم يزعم أنهما كانا في «مشاوير» بحث دؤوبه عن الأثاث للفيلا الجديدة.؟

– ماذا عن الفيلا؟ تساءلت..

غبنتها الخدعة التي عاشتها لأيام وغبنتها حقيقة أفول نجم ذاك البطل الرياضي الضابط الشديد الشكيمة يتراخى ويربط عنقه في حذاء إمرأة خرقاء بلداء كل همّها المقاهي.. والشيشة.. والضياع.

ترنحت ملياً في حيرتها وخوفها ثم انبعثت فيها رجاءتها بالله العلي العظيم في أن يعيد اليها ابنها المتسمّر أمامها على السرير الأبيض...

ظهرت علامات التعافي على وجه عدي بعد أيام مرت ثقيلة كالعباب المصطحب، فكتمت بكاءها في صدرها، دفنت في عمقها سر فعائل فريدة، وأطفأت حزنها في الشرايين، ثم أرسلت دمعات مستكينة تبدد غضبها عليه. تلك هي الأمومة المترعة في الحنان والرحمة تغالب غضبها من أجل فلذة كبدها وتبلغ الجمر الحارق لترسل من عينيها ضياء مبددة الظلام في طريقه. انقشعت غيمات الحزن والغضب ومدت يدها إليه لتسند جسده المتهادي على عظامها الواهنة.

جلست بجانبه في سيارة الأجرة، تفرك أصابع يده، وتغرز أظافرها أسفل أظافره تحيل السواد الذي تكوّم تحتها من العبث.

توقفت السيارة أمام الفيلا الجديده فأستراحت نفسها من جمال البناء والغرف الواسعة حتى الصالة بإطلالتها على الحديقة الغناء قد ازدحمت بأشجار الليمون «الزهيري» الذي تحبه. وتوسطت الحديقة شجيرات بالقرب من نافورة صغيرة منثور فيها زهور وورود بأعطارها الفاتحة باعثة الحياة في قلبها وروحها.

سألها عدي وهي تقرأ المعوذات وتنفث...

- ها... تسوى الخمسة مليون وإلا لأ ؟

قالت والفرحة تنساب من وجهها القمري..

- تسوى أكثر... بس متى نسكن فيها؟

- قرب الفرج، الخميس إن شاء الله حسب وعد شركة الديكور والأثاث.

عاد الجميع إلى الفندق، فعادت إلى رفيقة مناماتها الأريكة العتيقة.. المتيبسة كما ظهرها، تمتمت - لقد ذهب الكثير ولم يبق إلا القليل، فمدّت جسدها، تشدّه تارة.. وتلمّه تارة.. تغفو.. ثم تصحو من الألم المض الشديد.

أما عدي وزوجته فقد غرقا في بحر من النوم العميق بأمواجه المتلاطمة بالشخير وبرائحته النابتة من أعماقه. ولما شقّ الفجر خد السماء صاحت صالحة عليهما محاولة إيقاظهما للصلاة إلا أن التعب قد تملك منهما، والتهاون والاستهتار قد تمكنا من عقلهما. فصاحت بصوت أفزعهما حتى استيقظا مرتبكين. تمغّط عدي طويلاً ثم وقف ببطء متثاقل حتى انتهى من صلاته بلا خشوع ولا سكينة ثم ارتمى على السرير واستغرق في نومه...

اقتعدت كرسياً بجانب السرير وراحت تنظر إليهما وتحوقل ثم تذرف دمعات مترعة بالحزن والأسى على ابنها الذي كاد أن يضيع من

بين يديها بسبب تلك الشيشة العفنة التي تستوردها أوكار الدمار وتبيعها على الجاهلين والمراهقين.

ومع افاقة الساعة معلنة تمام العاشرة أفاقت فريدة مذعورة وراحت تهز جسد زوجها المتخدر.. وصاحت بصوت مرتبك...

– قوم يا شيخ لا يخلص الفط..وو... ثم توقفت عن الكلام.

نهض عدي كالحصان من مربضه، لبس ثوبه، وحمل الغترة على كتفه، والعقال على رأسه.. وخرجا مهرولين دون أن يلقيا بال لتلك الساكنة بين يدي الله في سنة الضحى. ولما سلمت من الصلاة لملمت الأشياء المتساقطة على الأرض ووضعتها في الدولاب وهي مستغربة العجلة.

وبعيد ساعة من الزمن امتلأ ممر الغرفه بالضحك فنظرت إليهما مستبشرة قدومهما البدري.. وقالت متبسمة...

– دوم ان شاء الله.. يا عيالي.

قال عدي والضحكات تسبق كلماته...

– الحمد لله كل شيء خير..

بينما فريدة من خلفه تضرب على بطنها المتورم...

– أيوه كل شيء خير.

عرفت صالحة استفزازاتها ولاحظت تغيّر أخلاقها وتعاملاتها منذ وفاة الشيخ صالح إلا أنها حملت بعض على النية الطيبة وحسن الظن وبعض ركلته تحت قدميها وتغاضت عنه. كان كل فكرها يفضي إلى المسايرة والمدارة من أجل ابنها الوحيد ومن أجل حبيبها وقرة عينها سعد.

وفي مساء الخميس... اليوم الموعود للإنتقال إلى الفيلا الجديدة،

سمعت طرقاً خفيفاً على باب الغرفة، فتحت الباب... إذ بذاك البريق يسطع من عينيّ حفيدها وتلك الرائحة المكاوية تفوح من ثيابه... لفّها بكلتا يديه وقبّلها على رأسها ويديها. جلس إلى جانبها وهو يحكي لها إبداعاته في الاختبار وأنه قدّم طلب بعثه لدراسة الطب خارج المملكة. غمرتها الفرحة ثم ذرفت دمعات الحب والخوف ثم روت له مرض والده وكيف خبأت الخبر عنه كي لا تشغله عن الاختبارات.. فصاح فجعاً..

- طيب هو فينه.. وأمي فينها؟..

قالت وهي تتلمس يديه برقة... وتمسح على شعره..

- يا حبيبي هما في المطعم..

لم يلبث أن دخل والديه إلى الغرفه فقام وسلّم عليهما ثم حمل الحقائب وسبقهما إلى الاستقبال منهياً إجراءات الخروج... وبينما هم في السيارة قالت صالحة لحفيدها سعد...

- ليش سيارتك «مهكعة» كذا..!؟

رد بمزاجه المزاح...

- على قد ما تعطيها تعطيك... يا جدتي الحبيبة.

- يا عدي: من بكره اشتري لسعد سياره جديدة من نصيبي في الميراث.

- بس يا أمي.. الـ..

- لا بس.. ولا شيء.. قول حاضر..

قال وهو يضغط على الحروف

- حـ حاضر

تسامر الجميع على أحاديث سعد الذي كان أشبه لجده في

الطول وفي أناقة الحديث حتى خفة الظل وروح النكتة. لربما استقى هذه الروح من رائحة الحليب في ثدي جدته التي كانت تلقمه إياه وهو رضيع وتقول له: هذا الثدي الذي رضع منه أبوك في فمك الآن تشبث فيه فليس فيه إلا رائحه الحليب...

انتصف الليل فتثاءبت صالحة وربتت على كتف سعد

- خلاص «بربرة».. خذني إلى غرفة النوم

وبينما هما صاعدان في الدرج إذ بفريدة تصيح زعيقاً...

- الغرفة هنا...

وأشارت بأصبعها إلى الفناء الخارجي.

فغر سعد فاه... وسأل

- ف يـ يـ ن ؟

أشارت إلى الغرفة الخارجية في باحة البيت دون أن تنظر إلى عينيه المستغربتين!

- جدتك لا تطيق صعود الدرج فاخترت لها غرفة خارجية مطلة على الحديقة.

هزت الجدة رأسها واغتصبت الابتسامه وهي تضغط على يده...

- أيوه.. صح يا سعد.. أنا لا زم أكون تحت وبعدين هناك المنظر أجمل.

رتب غرفتها التي قذفت فيها الأشياء بعشوائي'... وقال معاتباً...

- الله يهديك يا جدة... ليه ما قبلتِ بغرفة داخل الفيلا؟!

ثم عاد بليلته تلك إلى مكة وترك جدته في أتون ضغائن أمه ومؤامراتها المندسة في ابتسامات وضحكات كاذبة كانت تنخر في عظامها وتخربش مشاعرها. أما عدي الذي كان يخشى عليها من

نسمة الهواء إذ لامس «شيلتها» مبعداً عنها ما يجرح مشاعرها فقد تغيّر حتى نظراته الحادة انكسرت وشخصيته القوية رقت. لعله الحزن (قالت) ولكن هيهات للحزن لا يتحول إلى جلجلة وهو يشهد مكائد زوجته ويسمع نتنها الفائح في الفيلا. كيف لا يذود عن التي حملته وهناً على وهن والتي سهرت الليالي تذرف الدمعات عليه وتحمل الآلام في أحشائها، حتى زبيدة الخادمة الجديدة قالت مستغربة سلبيته ومنتقدة رجولته. كيف يرضى رجل مهما كان أن يقذف أذنيه في حضن زوجة تسب وتلعن أمه؟! أو حتى تنتقد حركاتها، وكلامها أو لباسها... مهما كان؟! أي رجولة (قالت الخادمة زبيدة) تسمح له أن يلغي مشاعر أمه، يهمل ملبسها، ويغفل مأكلها؟ أي رجل (قالت والدمعات منهمرة على وجنتيها) يقبل أن تأكل أمه من فتات الأكل في حين أن زوجته تأكل من أرقى أنواع الأكل «الصحي» الذي تأتي به سيارة خاصة كل صباح.

كانت زبيدة تخبّئ بعض الفواكه والأكل وتأتي به خلسة إلى غرفة صالحة في سكون الليل. حقاً.. «وجعلنا بعضكم لبعض سخرياً».. فسخر الله لها هذه الخادمة التي قامت سراً على غذائها ودوائها ورتبت حاجياتها وغسلت ملابسها. لا تلبث صالحة أن تدعي لها بالتوفيق والسداد وتدعي لابنها وزوجته بالهداية والصلاح، فسمعتها زبيدة ذات ليل وقالت متسائلة باستغراب...

– ماما.. أنت ليش يدعي لهم ؟

مسحت على رأسها بهدوء...

– يا بنتي هذا ضنايا وما حيلتي غيره.

وفي ذات ليل، ثمة صخب ازدحم فيه الفيلا... فجاءت زبيدة تحمل في أعطافها فرحة بوسع المدى...

– ماما... ماما، عدي صار مليونير كبير باع مخطط وكسب فلوس كثير.

أشرق وجهها من الفرح وقالت...

– الحمد لله اللي بلغه ما تمنى...

إلا أن هذا الفضل الرباني عليه لم يأت لها بخير، فعدي وزوجته فاضا في طوفان الغي والمجون فجثمت على أنفاسها الضوائق من الرقص والموسيقى الصاخبة المرسلة ضجيجها في كل الحي. طرقت باب الفيلا مرات محاولة إيقاف الضجيج إلا أنها قوبلت بالجفاء والصدود حتى أصبحت منبوذة في بيتها لا أنيس لها إلا الله، ولا جليس معها إلا زبيده التي تتسلل إلى غرفتها بين الفينة والأخرى.

ورغم تمرد عدي على البطن الذي حمله والثدي الذي أرضعه إلا أنها كانت ترقبه مختالاً في مشيه قبالة غرفتها وترجوه أن يعود إلى صوابه لكنه كان يتظاهر بالانشغال ثم ينسل من أمامها فيبتلعه الظلام.

أما فريدة فقد حشدت طاقتها في صنع المكائد محاولة التخلص من صالحة بأي شكل وبأي طريقة... وفي مكيدة جديدة قررت اجتزاء جزء من غرفتها للسائق الجديد، فتحول «الهدام» المزعج إلى حشرجة في حلقها فكانت بالكاد تبرح مكانها من شدة السعال. تبعثرت حاجياتها واتسخت ثيابها وشرشف صلاتها. ورغم كل الأسى.. والألم إلا أنها لم تبتئس ولم تقنط من رحمة الله... فإيمانها بالله تعاظم مع تعاظم المصائب والمؤامرات.

صمتت صالحة لبرهة وقالت لزبيدة وهي شاخصة بصرها في السماء.

– والله لو أن «لو» ليست عمل الشيطان لما قبلت بهذه المأفونة زوجة لابني، فحينما اصطحبني إلى بيت أهلها الخرِّب في شارع

المنصور شممت رائحة العفن الملتصق في جدران بيتهم ثم رأيت أخوتها في الشارع ينبشون القمائم ويجمعون قطع الحديد والأخشاب... لكنها كانت رغبته، ولم يكن لي إلا أن أوافق.

ورغم الإحسان الذي وجدته ورغد العيش الذي عاشته في ظل الشيخ صالح وكرم وعطاء صالحة إلا أنها استمرأت دعارة الصبايا، فتارةً تقذف إشارات الخبث المتأصل فيها بالهمز واللمز وتارة بالتصريح القبيح حتى أن ساقها قبحها النتن ذات ليل إلى قذف أمه بما لايصدقه عقل.

استطاعت وقد لبّست على زوجها وهو كالفأر المخنوق في كيس نفاياتها في ليلة مشئومة تعفنت برائحة الشيشة وترنحت في ضحكات صبايا وصبيان ثملين زعمت أنها رأت صالحة مستعرضة جسدها المترهل أمام السائق وزادت بأنها بادلته الآهات من خلال الجدار الفاصل بين غرفتيهما.

انتفخت أوداجه واحمر وجهه وكأن «غيرة» كل رجال الدنيا وعنفوانها تكوّمت في صدره. نفث دخان الشيشة بقوة في الهواء.. راسماً خطوط ودوائر متسائلة:

- ماذا أقول لهذه العجوز الشمطاء؟..

ردت عليه بتشنج مصطنع..

- قول لها يا عجوز اختشي من الناس وخافي من الله.

وبينما هما في المقهى يخططان ويكتبان سيناريو دراما نتنة كانت صالحة مستكينة بين يدي الله بعد ما فرغت من صلاة التهجد رافعة يديها إلى السماء خاشعة ذليلة. وما هي إلا لحظات حتى دخل عدي والشرر متطاير من عينيه ورائحة الشيشة معبقة ثيابة والنتن منبعث من فمه.. راح يصرخ بهيجان..

- كيف يا... تخرجين عارية أمام السائق ؟

أهذا يجوز؟.. يا هوه..

ترى أنتِ رِجل في الدنيا ورِجل في القبر.. حرام عليك.. اختشي!!!

فغرت صالحة فاها وتلعثمت في الكلام، لا تدري بماذا ترد على هذا «الخبل». فحملت نفسها نحوه بخطوات متثاقلة كي تشتم فيه رائحة الخمر فدفعها بيده حتى سقطت على الأرض وراح يصيح ويرعد ويزبد ويتوعد. جن جنونها فدخلت في غيبوبة أفاقت منها بعد هنيهة ثم طافت بنظرها عليهما في صمت، نظرت إلى فريدة المندسة خلفه وقد تقحطت في لباس خليع واضعة يديها على وركها الأيمن تهزه بميوعة، ثم فجّرت الصمت المطبق...

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

عادت بهدوء إلى سجادتها المفروشة على الأرض والدمع ما زال ينهمر بغزارة على أخاديد رسمها الزمن في وجهها... استمرت في بكائها... وشهقاتها حتى امتلأ فضاء الغرفة برائحة الطهر والنقاء.

ظل عدي وفريدة واقفين لساعة، ينتظران رد، وهي لا تلبث أن تحوقل وتسأل الله أن يعتقها من هذا الجحيم الدنيوي، وأن يرحم قلبها الذي تسارعت ضرباته، وصدرها الذي امتلأ بالحشرجة.. والبكاء.

صاحت فريدة بتهكم...

- ها... ما رديتي يعني؟!!.. ردي إذا عندك إجابة؟

نظرت إليها وهي تكفكف دمعها...

- حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل.

رخت نظرها إلى مكان سجودها وطلبت من الله أن يخرجها مخرجاً جميلاً، وظلت كذلك حتى طرف النهار. تسلّلت زبيدة إلى الغرفة وقد سمعت المؤامرة الخطيرة فربتت على رأسها...

- ماما.. الظلم ظلمات.. وأنت إن شاء الله من أهل الجنة، أنت صابرة محتسبة.

ثم وضعت في فمها لقيمات من فتة الحليب الدافئ التي صنعتها للتو وظلت بجانبها تهدهد عليها حتى انتصف الضحى، وبعد أن فرغت من سنة الضحى التفتت على زبيدة.. وقالت وهي تضغط على الأحرف بقوة..

- نادي لي عدي.. عدي لوحده.. فهمتي!

دخل عدي إلى الغرفة وهو يجر رجليه الثقيلتين ويمسح «الغمس» من عينيه ثم قال بكلمات متهدجة...

- ها.. ها.. ناديتني؟

قالت بصرامة...

- نعم ناديتك، أنا أبغى حقي من الورث، ومع السلامة، أنا بارجع إلى مكة أعيش هناك. فهمت؟!.. عندك ثلاث أيام تدبر لي حقي الشرعي.

عاد إلى زوجته في خطوات ثقيلة وقد أرعبه عنفوان أمه وحزمها، حمل في قلبه كل كروب الدنيا.. وفي عقله كل هم الحياة.. تمتم... أارد لها الورث؟!!.. كيف.. ؟!.. ثم دفع كتف فريدة بيده..

- قومي يا شيخة... أمي طلبت نصيبها من الورث..

مضغت الكلمات في حلقها المتعفن وزمت شفتيها..

– قول لها بنيت لك فيها مسجد في إندونسيا بتبلع الكذبة... اسألني!

ثم لفت الغطاء على جسدها المتورم وذهبت في نوم عميق. اقتعد كرسياً بجانبها يشتم ريحها التي لا تلبث أن تطلقها في أنفه ويجوس في لون الكذبة المحبوكة... تمتم

– والله... إنها فكرة «جهنمية» ومقنعة.

إنطلق إلى أمه وطرق بإصبعه على الباب الموارب. استأذن الدخول وقال وهو يتصنع الأدب والحشمة...

– يمه.. أنا نسيت أقول لك..إني اشتريت بجزء من نصيبك في الورث سيارة لسعد.. والباقي بنيت لك فيه مسجد في إندونسيا..

نظرت إلى عينيه التي تقطّر منها الكذب، وأطرقت برأسها، فقد علمت أن التمرد قد أمتطاه وأنه اغتسل بحقد زوجته التي حتماً لقنته الدرس وعاد ببلاهة لسرقة حقها الشرعي.

لملمت «عفشها» في حقيبة صغيرة وقالت بحدة...

– وديني عند أخويه سالم في مكة.

ثم فتحت باب السياره وجلست في المقعد الخلفي في هدوء وسكينة، بينما هو يعزف لها أكاذيب الحب والوفاء والإخلاص حتى وصلا إلى بيت أخيها. نزلت من السيارة بهدوء

– روح.. وكّلت الله عليكما!

استقبلها أبناء أخيها بحفاوة وإكرام فهي الغادقة عليهم دائماً من الخير في كل مناسبة. جلست إلى أخيها وقصّت معاناتها مع عدي وزوجته... فقبّلها على جبينها... وقال:

– يا أختي.. البيت بيتك وعظمي ما تربى إلا من خيرك... هذه

غرفتك كان إسمها غرفة الضيوف والآن هي غرفة الغالية صالحة.

ابتسمت وارتاحت نفسها لوفاء أخيها الذي ربّته ورعته في طفولته مذ وفاة والدتهما. لم ينكر لها صنيعها فيه وصنيع زوجها الشيخ صالح الذي استوظفه عنده وتعاهده بالتعليم والمتابعة. وبينما هم منتشون في الحديث عن الأيام الخوالي إذ بالباب يطرق بشدة، تبعه صوت ينادي...

- سالم.. سالم

فتح الباب، إذ بجارهم النقيب مسعود يتلفت يمنة ويسرة ثم اقترب منه وقال بصوت خافت:

- للتو وصلتني إشارة من مرور «أم السلم» أن ابن أختك عدي توفي في حريق نتج عن تصادم سيارته مع شاحنة بترول.

- ها.. ماذا ؟..

ثم صمت...

لا يمكن أن يخبر أخته والليل قد خيّم في السماء، فمسك الخبر في صدره وطلب من ابنه في سريّة تامّة مراجعة المرور والمستشفى والتحقّق من كل شيء حتى يلحق به بعد الفجر.

وبعد أن فرغا من صلاة الفجر في الحرم المكي ربت سالم على كتف أخته...

- يا أخيتي، أنت امرأه صالحة، ومؤمنة بقضاء الله وقدره. ترى عدي توفي في حادث اصطدام...

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

ثم خرجت من صدرها حشرجة وبكاء، وراحت دموعها تهطل بغزارة...

- رجاء لا تدفنوه حتى يأتي سعد من الخارج

أقيم سرادق العزاء وقد تقدم المعزين سعد الذي كان يسرق لحظات قلة المعزين ليطبع قبلة على رأس جدته، ويطلب إليها مسامحة والده.

– يا حبيبي... مسامحته رغم...

ثم سكتت...

فلا يمكن أن تحكي لسعد كل التفاصيل، لا يمكن أن تعكّر مزاجه، لا يمكن أن تحكي له «التهمة» النتنة والمؤامرات المتكررة، فيكره أبيه وقد أفضى إلى ما آل إليه.

انقطعت أخبار فريدة حتى عن سعد، أما الفيلا فقد اشتراها رجل زعم أنه لا يعرف عن البائعة أي شيء فقد تركت عنوان وتلفون وهميين..

مضت السنوات فتخرج سعد في كلية الطب ببريطانيا، فعيّن طبيباً عامًّا في مستشفى الملك فهد بجدة، ورغم انشغاله في وظيفته الجديدة إلا أنه سخر وقتاً طويلاً للبحث عن أمه في سجلات المتوفين، ولم يترك طريقاً أو مكاناً إلا فتّش فيه عن أي أثر لها. لا يمكن أن يكون تبخرت (تمتم)...

وذات ليل مطير خرج بسيارته هائماً في شوارع جدة ممتطياً خياله مستدعياً من ذاكرته صور غيض أمه من جدته، تذكر تأنيبها له... وحثها له بأن لا يعطيها «وجه»، تسارعت الصور في ذهنه وكأنها إعصار يحطم كل الذكريات الجميلة تتخلله نار تأكل البقايا الخضراء، صور برزت فيها فعائل أمه المشينة في جدته العابدة الزاهدة. لقد طفحت الحقيقة النتنة في زجاجة الماضي وفتشت عن ريحها حقائق لطالما لفظها عقله، حقائق لئيمة وأحقاد وضغائن أبت جدته الإفصاح عنها إلا أن خاله سالم قد ذكر له بعضها...

وبينما هو يطوف بين الصخب ورائحة الصرف الصحي الذي لا يلبث أن يدغدغ الأنوف في شوارع جدة إذ بإمرأة متبرقعة لا يظهر منها إلا عين واحده تطرق على زجاج السياره عند إشارة المرور المتوقف عندها. نظر إلى الرضيعة المتوسدة يديها والذباب متكوم عليها، يقتات على خمائر مخاطها المنساب إلى شفتها العليا، فدفع اليها بخمسمائة ريال... ثم قال بسخط:

- يا حاجة... روحي نظفي طفلتك كي لا تصيبها أمراض ميكروبية.

أطرقت برأسها وقالت بصوت مكتوم..

- إن شاء الله... جزاك الله خير.

ثمة أفكار تتزاحم في ذهنه، عن هذه الظاهرة المشينة والجديدة على المجتمع، ظاهرة السيدات اللائي يغامرن بحياتهن وحياة أطفالهن بين إشارات المرور. لماذا كل هذا يحصل في بلاد النفط؟.. أين الجمعيات الخيرية عنهم..؟.. أين.. ؟! وبينما هو يقرأ الواقع المؤلم، ويضرب بسوط العتب على الجمعيات الخيرية...

إذ بصياح يخترق كل الضجيج في الشارع...

- وقف.. وقف.. لقد سقطت الشحاذة وبنتها.

خرج من سيارته بسرعة إذ «بالشحاذة» ملقاة على الأرض والدم ينضح من بطنها، أما البنت الصغيره فقد غاصت في البكاء.

صاح بحدة على الناس الذين تحلقوا حولهما...

- ابتعدوا.. ابتعدوا.. أنا طبيب..

أخرج شنطته الطبية من السيارة وبدأ في فحص المرأة، رفع الغطاء عن وجهها فشهق ثم سقط مغشياً عليه.

بعد دقائق وصلت سيارات الإسعاف فحملتهم إلى المستشفى ولما أفاق من غيبوبته راح يسأل زميله الدكتور محسن عن الشحّاذة؟!

- هل هي حية ام ميتة؟!!

- حية ولله الحمد...

وأشار إلى غرفة طوارئ النساء. إنطلق إليها وراح يتفحصها بشدة، ثم يمسح عينيه، ويعود لتفحصها...

- إيش اسمك.. إيش اسمك.. تسمعيني ؟!!

ردت بصوت متهدّج..

- ف ف ريدة...

- إسمك.. فريدة محي الدين

- اااايووه..

- أمي.. أمي.. لا يمكن ؟!

نظرت إلى وجهه المألوف يتراقص في عينيها المزغللتين.. لمست يده..

- أنت ولدي سعد..؟!

- نعم.. نعم أنا ولدك الدكتور سعد..

دخلت في غيبوبة نقلت على أثرها إلى غرفة العناية المركزة، أخذ الدكتور سعد الرضيعة ودفع بها إلى جدته صالحة وطلب منها العناية بها إلى حين، لم يذكر لجدته أي شيء عنها أو عن الشحاذة التي وجدها بين ركام السيارات.

طلب من مدير المستشفى أن يعيّنه مؤقتاً في العناية المركزة للتدريب، فوافق له. لم يبرح الدكتور سعد العناية، فقد كان يتابع حالتها شخصياً وباهتمام بالغ دون أن يعلم أحد بأهمية هذه الشحاذة إليه حتى

فاقت من غيبوبتها التي استمرت ثلاثة أسابيع.

وقف بجانبها وسألها..

– أنا حتى الآن لا أصدق.. كيف ؟.. ماذا ؟ وأين اختفيتي.. ماذا حصل ؟؟!! أحكي لي بالتفصيل.

قالت بصوت خافت وهي تلامس يده..

يا دكتور، يا حبيبي، يا ولدي.. حكايتي هي الذل والهوان في الدنيا وأسأل الله العلي القدير أن يسامحني وتسامحني!

– وماذا..؟!!

يابني...

– قبل وفاة والدك بأسبوع، أقنعته بنقل ملكية الفيلا إلى إسمي، وطلبت منه كتابة شيكين على بياض للطوارئ، ولما توفي خفت على نفسي من جدتك وأهلها، فبعت الفيلا وسحبت كافة الأموال ووضعتها في حسابي الشخصي، وقد تجاوز المبلغ الخمسة عشر مليون ريال، سافرت إلى لبنان لأرتاح قليلاً من همومي وأحزاني، الملم دموعي على فراق أبيك، لم ألبث طويلاً حتى تعرفت على رجل هناك، ملء قلبي المصاب بالحب، وغمرني بالعطف، حتى كدت لا أرى في الدنيا إلا عينيه الواسعتين وشعره الأشقر، بدا لي كالفارس الذي تحلم به المراهقات، استطاع أن يقنع قلبي الجريح بحبّه الدافق، ولذيذ كلماته، فتزوجته ولم أخبر أحد.!

سافرت معه إلى دبي حيث كان يعمل نادلاً في مطعم، وبحق لم يطلب مني أي مساعدة. أشعرني أنه لم يتزوجني عن طمع، كما أنه لم يكن يعلم أنني «مليونيرة». كان بحق يعمل ليل نهار حتى رأفت بحاله. يخرج من البيت في ضحى من نهار ولا يعود إلا بعد منتصف الليل وقد أنهكه التعب.

غمرنا الحب والوئام في الأشهر الأولى من زواجنا ورغم قصر الأوقات التي عشناها مع بعضنا إلا أنني قضيت أجمل أيام حياتي في دفء صدره. ولما تأكد لي حبه وإخلاصه بيّنت له أن لديّ بعض المال عازمة على استثماره في مطعم خمسة نجوم. شجعني وأغراني بجدوى الاستثمار في المطاعم.

إنتقلنا إلى شقة فخمة في برج مميز في شارع زايد، ثم عملنا سوياً في المطعم، لكن الحظ لم يحالفنا والتوفيق لم يتحقق لنا، فاضطررنا إلى بيع محتوياته ببخس، ولما لم يستطع العودة إلى عمله السابق ظل في حكم العاطل لأشهر فهدّدته السلطات بالترحيل.

قلت له وقد شاعت موجة الأسهم الرابحة آنئذ...

- لماذا لا نستمثر مليون درهم في الأسهم.

حالفنا الحظ فبعد أقل من شهر تضاعفت قيمة أسهمي إلى أكثر من الضعف، فسحبني طاغوت الطمع فحولت كل ما أملك من دراهم إلى سوق الأسهم. تضاعفت وكلما تضاعفت قيمتها.. تضاعفت أطماعي حتى سقط السوق برمته في صباح أسود ابتلع كل مقدراتي...

خسرت أكثر من خمسين مليون درهم إلا خمسمائة ألف تقريباً. ومنذ ذلك اليوم لم يعد زوجي إلى البيت، فتشت عنه عند أصدقائه ثم ذهبت إلى مراكز الشرطة وطرقت كل أبواب المستشفيات، بحثت عنه في كل مكان حتى صفعني مسؤول في الجوازات بقوله إن هذا الشخص قد خرج نهائياً من البلاد.

عدت إلى البيت ففتشت محفظة أسهمي فلم أجد فيها شيء! تذكرت ذلك اليوم الذي طلب مني أن أكتب له شيكاً باسمه بخمسمائة ألف درهم لشراء سيارة مرسيدس.. «الحيوان».. قالت.. سرقها وهرب، تركني وقد انتفخت ثمرته في بطني، ولم يتبق لديّ في شنطتي

إلا خمسة الآف درهم، وثلاث بطاقات ائتمان كانت مديونة بأكثر من سبعين ألف درهم.

بعت أثاث شقتي وكل مجوهراتي، ولم أستبق شيئاً غير خاتم زواجي من أبيك عدي رحمه الله، اشتريت تذاكر طيران للعودة إلى جدة، ولم ألبث فيها إلا أيام حتى دهمني المخاض فوضعت ابنتي «شذى»...

- الا.. فين شذى.. هل ماتت ؟؟!!

رد عليها والدموع تملآ محجري عينيه..

- في الحفظ والصون.. عند جدتي صالحة..

فسألته مباشرة...

- الا كيف جدتك صالحة، والله إني ظلمتها كثير وكل ما حصل لي كان عقوبة من الله. أستغفر الله، أسألك الله أن تطلب منها مسامحتي، وإذا بقي لي عمر سأقبِّل قدميها.

وبينما هو يكفكف دمعه إذ جاءه نداء على مكبّر الصوت «الدكتور سعد» رجاء الحضور فوراً للطوارئ، فقبّلها بين عينيها وكفكف دمعها بيديه، ثم أسرع لمتابعة الحالة الطارئة.

وبعد نصف ساعة عاد مهرولاً إلى الغرفة ليستمع إلى بقية القصة، فتفاجأ بتحلّق زملائه الأطباء حول سرير أمه، فدخل بينهم، وفتش الغطاء عن وجهها... قبلها بهدوء، وانسل إلى الخلف يجر من صدره دمعات بائسة، يتمتم... لقد ماتت.. فريدة.. الأم.. المليونيرة.. المنهوبة.. الشحاذة...

تمت 14 فبراير 2011

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ

بكيت كعادتي حينما فتحت محفظتي ولكن هذه المرة بكائي كان بطعم الغياب الذي اختطفه مني. أمعنت النظر في الصورة التي احتفظت بها لسنوات في محفظتي وطبعتها في قلبي، وفي شراييني. تذكرت أيامه التي عاشها وحيداً بعد الغياب الأبدي الذي أخذ رفيقته السمراء، ثم تذكرت الأيام الكالحة التي لا تمسح من ذاكرة اللعنات بعتامة محاكمة ذاك الشيب الذي أضاء حياة الفقراء.

في المحكمة سأله أحد القضاة:

- لماذا تريد مرافق؟!

رد بصوت متقطع كسول...

- أيرضيكم أن أعيش بقية عمري لوحدي في الظلام ؟!.

-.....

- أيرضيكم أن أسقط في الحمام وأنا أتبول؟!

-.....

- إرحموا ضعفي أيها القضاة!

-.....

- أتوسل إليكم...

- رفعت الجلسه... (صاح الحاجب).

غاب القضاة لزمن طويل، انطرحوا فيه على صدور زوجاتهم، لاعبوا أبناءهم وأحفادهم. لعبوا الكوتشينة على ضفاف جبال الألب ثم عادوا وقد شبعت غرائزهم... كل غرائزهم، وتجدد في عظامهم طعم الحياة.

عقدوا محاكمة جديدة، هذه المرة بلا محامي حتى عصا المتهم رقدت تحت رجل أحد القضاة...

سأله...

- لماذا تريد مرافق ؟!.. أجب.. وسبب طلبك.؟!

- اااااالسب.. ب.. ب

صاح القاضي..

- تم رفض الطلب، ولا داعي لسرد الأسباب، لقد بدا لنا أنك فاقد الأهلية فأصبحت تهذي، لعل البارکنسون فعل فعائله في عقليتك.!

قطع الوجوم صوت حائر من عفونة الحائط خرج...

(فشلتنا يا شايب)... حتى سكان المدينة سخروا منا؟!

ثم أطبق الصمت في المكان، قطعه استئذان المتهم لتبديل ملابسه التي غرقت في البول.

عاد وقال...

- آسف أيها القضاة، أنا رجل نطح المائة عام ومصاب بسلس البول؟! اعذروني..

ابتسم المدعي العام تبعه كل القضاة بقهقهات اختفت في عتمة نظراتهم الطائشة. أجمعوا على أنه سيلوث اسم المدينة...

قذف المتهم بعمامته، وقام يتهادى... صرخ بأعلى صوته.

– أي إسم ؟ الإسم الذي صنعته. أنتم تعلمون أن المدينة كلها سميت باسمي.. بتأريخي.. بأعمالي.. بإنجازاتي؟! ثم إني لم أطلب منكم شيء إلا الموافقة على مرافق... أتكيء عليه، يبدل حفاظتي ويغسل ثيابي، أريده بالحلال وأنا صاحب المال..

–.....

ما لكم لا تفقهون؟!

وأردف قائلاً وهو ينظر إليهم بعين العطف الممزوج بالغضب...

– أيها القضاة.. حينما كنت يافعاً كنت أجرف الماء من البئر لأسقي المدينة، كل المدينة. كنت أصعد إلى أعلى الجبل لأضع في فمها تفاحة، كنت ولو أردتم أن أزيد لغرقتم في خيراتي حتى كبرتم واشتدت سواعدكم، أحضرتم مطارقكم، ووضعتم الجنازير في يدي، وأعلنتم محاكمتي.

–.....

– تبًّا لكم.

فجأة.. هبت رياح شديدة حطّمت رواق المحكمة ثم فاحت رائحة عفنة تتصارع مع رائحة النقاء. تخالف القضاة فمنهم من أفاق من الغيبوبة... ومنهم من امتطى صهوة العناد... سقطت المطارق.. وتطارحت الكراسي على بعضها البعض.

انتشر الموت الغبي في المحكمة...

أما المرافق المؤقت فتدحرج تحت الكراسي المنطرحة يمسح البول.

تمتم المتهم...

إن محجريّ مشغولان عنكم بما هو أهم منكم فلا بكاء على

المعاندين إلى يوم الدين.

فتحشرج صوته في عتمة المكان... وأغلق باب الجنة الذي فتحه الرحمن...

ثم صمت للأبد...

تمت 14 فبراير 2011

فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ

أُحدثكم...

من داخل القبر.. هل تسمعون.. هل تعون !؟

أنا الأم التي حملتكم وهناً على وهن.. وأرضعتكم من وجيب قلبها وحليب ثدييها..

أنا التي سهرت عليكم.. في مرضكم.. وبكت لبكاءكم.. وفرحت لفرحكم.

أنا التي زوّجتكم..

تعرفون.. أم لا تعرفون..؟!

تعون.. أم لا تعون..؟!

الآن هو وقت الإفصاح، لقد تكتمت كثيراً، لقد حبست في قلبي البكاء، ودفنت وجيبه عنكم، كي تسعدوا، كي تفرحوا، فعلت كل ذلك من أجل راحتكم وسعادتكم... ولكن، اسمعوني الآن وأنا أتحدث إليكم من الصمت الأبدي...

زوجتك.. يا خالد كانت تمغصني نظراتها الحادة وهي تلوك اللبان وتتقصع في كلامها لإغاظتي. تعمدت ورمت عباءتي في بيتك ذات يوم.. نظرت اليّ.. ثم نظرت إلى العباءه المقذوفة على الأرض، كانت بإشارات عينيها تأمرني لالتقاطها بنفسي. كانت تجعل الدقائق التي تقضيانها عندي جحيم، كنت أطفئه بهدوء قلبي، كي لا تشعر أنت.. أو تحزن.. أو تقرر ترك بيت أمك..لقد تحملتها كثيراً من أجلك.. لأني أحبك.. قلت لعله يلحظ تلك النظرات القاسية.. لعله

ينتبه.. لعله يعي.. ولكنك كنت غارقاً في بلاهتك.. هائماً في عينيها التي اغتالت أفراح أمك.. كنت لا ترى.. ولا تلحظ إلا نعالها الذي يتجدد كل أسبوع... كم أوجعتني يا خالد.

أما زوجتك يا طارق.. فكانت تملأ أذنك بالكذب، اتهمتني زوراً وبهتاناً مراراً وتكراراً.. وأنت لا تلبث أن ترخي لها آذانك وتربط عقلك بامرأة بلداء ثم تقوم احتراماً لعطرها الذي يسبقها.. لقد أصمت أذنيك واتهمتني بسرقة حلقها من محفظتها، وقد أقسمت لك وهي كاذبة أنها رأتني وأنا أوغل يدي في شنطتها، اتهمتني في بيتي، ولا أخال أنها كانت تعرف أني كنت قريبة منكم أسمع حديثكما.. وكنت أنت ببلاده وخنوع ورعشة ترجوها أن تخفض صوتها كي لا أسمع حديثكما البائس السقيم.

يا خالد.. يا طارق.. الرجل السويّ، إذا تلفظت زوجته على أمه يخرسها، يلطمها على وجهها إذا أصرت في غيها، من تعدى على أمك يتعدى عليك، من داس بكلامه على منبع الحليب الذي بنيت منه عظامك ولحمك لا يلبث أن يدوس بقدمه على عظامك ولحمك في وقت ما.

لقد تمردتما عليّ، لقد أسقيتماني المرّ، فكانت حياتي تعب، وكدر حتى أنكما اغتصبتما من فمي مقولة «سامحتكما» وأنا في سكرات الموت... ماذا عساني أقول. إن أنا سامحتكما في حقي فالله لن يسامحكما في عصيان أمره... أليس هو القائل: ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾.

توقف الصوت.. فجأه..

انتفضت فاطمة من نومها مفزوعة، ونبضات قلبها الشديدة تصفعها من أخمص قدميها حتى رأسها. نظرت حولها لم تجد إلا

الظلام الذي ابتلع كل الأشياء، والدمع الغزير الذي انهمر على خدّيها، وبلّل مخدتها، وشرشف صلاتها الذي تلحفت فيه.

جلست على طرف السرير، بكت بحدة ثم تحاملت على قدميها، وخرجت إلى المغسلة. نظرت إلى وجهها، مسحت دمعاتها ثم نظرت إلى عينيها الغائرتين من شدة البكاء. لقد أزعجها الحلم.. لقد أزعجها صوت أمها القادم من القبر.. لقد رأتها رأي العين.. لقد سمعت صوتها المتهدج يردد اللوم على أخويها خالد وطارق.

كانت فاطمة تعرف أن أخويها قد تمردا على أمهما. نصحتهما.. ونصحهما آخرون.. حتى جارهم الذي سمع طارق ذات مرة ينادي أمه بصوت عالي متشنج.

قال له الجار..

- يا رجل عيب.. هل يعقل أن تنادي أمك بهذه الطريقة؟

لم يعلم الجار أن تلك كانت أقل المعاصي التي ارتكبها طارق في أمه. لم يعلم أن خالداً كان يتجرأ على أمه بكلمات شيطانية بذيئة... معاصي تملأ الصحراء بعفونتها... وتبكي السماء من قذارتها.

تمتمت فاطمة: لقد رفضت أمي عشرات العرسان الذين تقدموا إليها بعد وفاة أبي، لقد كانت جميلة خلقاً وخلقة.. كان شعرها الأسود ينساب على ظهرها ويغطي عجزها.. عيناها تخطف الناظر إلى بريقها.. كانت الابتسامه لا تفارق محياها تسكب الطمأنينة في قلب الناظر إليها.

قالت فاطمة لأمها ذات زمن قديم...

- أنا افهم رفضك لكل المتقدمين، ولكن لا أفهم رفضك لإبن عمك «محمد»، وهو ذا جاه ومال، وغارق في حبّك منذ الطفولة، بل كنتما مشروع زواج لولا خصومة والدي مع عمي.

ردت بصرامة..

– لا.. لا أريد أن أنشغل عنكم بغيركم.. حتى ولو كان فارس أحلامي الذي عشت في دفء حبه طوال مراهقتي. وصدقيني يا فطوم لقد انتهى الحب بمجرد أن تزوجت أبيك. فلم يعد لمحمد أي صورة في مخيلتي...

لقد ضحت سعاد (أم خالد كما كانت تعرف) بكل شيء، فبادلت كل الناس الحب، وآثرت ما تحب وتهوى من أجل أبنائها.

ارتشفت فاطمة قليلاً من الماء، وركّزت رأسها على طرف السرير ثم راحت تستدعي الماضي المعيب لأخويها..

– واعيباه.. يا خالد وأنت البكري.. لقد ولدت شبه مشلول.. فلم تترك أمي طبيباً في الرياض إلا وأخذتك إليه. لقد باعت حزام الذهب واسورتها لتسافر بك إلى لندن لتكمل علاجك في أرقى مستشفياتها.. ولمّا منّ الله عليك بالشفاء.. أبت إلا أن تدرّسك في مدرسة خاصة. خافت عليك من أبناء الحارة الغاصة بهم المدرسة المجاورة لبيتنا.. ولمّا تخرّجت من الثانوية.. أقنعت أبي رحمه الله ليشتري لك سيارة فارهة.. كي تكون مثل أبناء عمومتك الذين منّ الله عليهم بالمال الوفير. راعت مشاعرك النابضة في شراييك.. كي لا تشعر بالدونية أمام أبناء عمومتك.

واعيباه.. يا طارق.. وأنت آخر العنقود.. السكر المعقود. كنا نغار من تدليلها لك. كنت تنام معها على سريرها.. توغل رأسك في صدرها.. في دفء حجرها. دائماً تختار لك أجمل الملابس.. وذات عيد وضعت على رأسك عقال أبي وقالت.. أنت مثله إن شاء الله.. ولم يكن؟!

وبينما فاطمة.. تستدعي تلك الصور من قبر الماضي وتتحدث في أعماقها مع أخويها إذ بالباب يطرق بقوة.. تأوهت مذعورة..

وتمتمت

- من سيأتي في هذا الوقت ؟!

نظرت من العين السحرية، إذ برجلين ومعهم امرأه يقتادون طارق المكبّل من يديه. فتحت الباب ووقفت خلفه.. وقالت برعشة..

- ما الأمر

- نحن قسم المخدرات.. نريد أن نفتّش البيت..

- لكن هذا بيتي وبيت أمي.. وليس لأحد علاقة فيه.

- معليش يا ستي.. لازم نفتش.

دخلوا البيت، ومعهم كلب ضخم.. فجأة.. وقف الكلب أمام صندوق «السيسم» حيث ملابس أمها وحاجياتها الخاصة.

قال الرجل لطارق.. بنبرة حادة..

- إفتح هذا الصندوق

صرخت فاطمة من بعيد بقوة.. لا لا.. هذا صندوق خاص بأشياء أمي..

صاح الرجل بحدّة..

- اسكتي!

فتح الصندوق، أوغل الرجل يده فيه وأخرج «كيس» من النايلون أسود، ثم خرجوا مسرعين. جلست بجانب الصندوق تبكي بحرقة، تبكي على أخيها المكبّل. تبكي ملابس أمها الطاهرة وأشياءها الجميلة التي تبعثرت في رائحة القذارة.

مرّت أشهر ثقيلة كأنفاس فاطمة المختنقة، تتساءل بوسع المدى، فطارق اختفى مع رجال الأمن، وخالد كان نادراً ما يزورها، راحت تتذكر صورة أمها، ثم تتذكر صوتها ينساب في أذنيها، ثم تتذكّر ذلك

اليوم الكئيب حينما بعثرت الشرطة أشياء أمها الخاصة. تلاطمت بها أمواج الصور الهائجة، وهي تداعب بيدها شعرها المتناثر على عتبات الخوف والرجاء.

وبينما هي تتنقل بين قنوات التلفزيون، راحت تستمع للمذيع يقرأ (بيان من وزارة الداخلية) وجمت في صمت حتى قرأ (بفضل من الله تم القبض على المدعو طارق عبدالسلام آل عبدالسلام سعودي الجنسية إثر قيامه بتهريب كمية من الحبوب المحظورة بلغ عددها 230 ألف حبة وبالتحقيق معه اعترف بما نسب إليه وبإحالته إلى المحكمة العامة صدر بحقه صك شرعي يتضمن الحكم بقتله تعزيراً، وقد تم تنفيذ الحكم اليوم الجمعة....)، دوّت بأعلى صوتها لا.. لا... طارق مهرب مخدرات... لا يمكن! طارق أُعدم... لا يمكن. جثم الخبر على صدرها فتثاقلت أنفاسها، وشعرت بوخزة قوية في قلبها فسقطت على الأرض مغمياً عليها.

وبعيد ساعة أفاقت فسحبت جسدها المتهالك متجهة إلى جارتها، إذ بأخيها خالد صاعداً الدرج... صائحاً بصوت متقطع... ف ط وم... ف ط وم.

وقفت للحظة مشدوهة..

- سمعت يا خالد ؟!

- نعم...

ثم ضمّها إلى صدره وشهقاتهما تسابق أنفاسهما الثقيلة...

تساءلت بصوت متهدّج..

- يا خالد.. لعل طارق كان مظلوماً أو كانت تلك نكاية من أحد عليه، لم يكن طارق مستعملاً للمخدرات.. كل ما سمعناه وتعلمناه أن مستخدمي المخدرات، تكشف وجوههم بواطنهم، يتوهون، يسرحون،

يتألمون، يجوبون الشوارع كالمجانين، يبيعون الغالي برخيص ليحصلوا على حبة أو نشقه من المخدر اللعين... وطارق لم يكن كذلك؟!.. لا بد أن هناك خطأ ما؟.. هل كنت تعرف عنه شيء؟

– أقسم لك بالله يا فطوم أني لم أعلم أن طارق سلك هذا المسلك إلا بعد أن سجل اعترافاته بتهريب المخدرات.

قاطعته.. وسألته عن زوجة طارق وأبنائه محمد وعبدالله وعلي باستغراب...

– ها.. زوجته.. أولاده.. ما عندك خبر؟!

– خبر.. ماذا؟

لقد عادت زوجته إلى بيت أهلها منذ اعتقاله وقد بلغني من ابن الجيران أنها في حالة يرثى لها بعد أن أصيبت بسرطان الرئة.

– ها.. ماذا ؟..

انطلقا صوب بيت والد هدى (زوجة طارق) في حي المرسلات، ففاجئهما زحمة السيارات حول البيت، والحزن قد فغر فاه، والبكاء ملأ الأحداق. بكت على فقد أخيها ثم تذكرت أبناءه، وخزها الألم في صدرها، وأصيبت بغثيان. أوقف خالد سيارته بين زحمة السيارات، حاولت إطفاء الغثيان إلا أنه كان أشد من أن تطفئه رشفات ماء أو استقاءات.

بعد عناء دخلت واحتضنت أبناء طارق، راحت تقبلهم وتبكي على فقدهم والديهم في يوم واحد. ولما أتما مراسم العزاء، قفلا عائدين إلى بيت خالد الذي ألحّ على أخته أن تعود معه للمبيت حتى تنقشع خيمة الأحزان...

وبينما هما في الطريق، ظل خالد يمازحها راغباً في إخراجها من خيمة الحزن الطافئ بريق عينيها، ثم ذكر لها أن صديقه سعيد ما زال

يتردد عليه طالباً يدها.. وقد قبل عذرها في المرات الماضية كونها تعلّلت بخدمة أمها، أما الآن.. فهي وحيدة.. وقلبها خالٍ.. فلما لا تفتح قلبها له، ابتسمت رغم طفحان الأحزان في قلبها.. وقالت على استحياء..

– بعدين... يا خالد

دخلت إلى الشقة فاستقبلتهما زوجته سليمة بترحيب متكلف، وبعد أن انتصف الليل، طلبت من أخيها أن يأخذها إلى بيتها.. قال جازماً

– لا يمكن... كما اتفقنا ستكونين عندنا حتى تنقشع الأحزان..

قاطعته سليمة بمراوغة..

– يا حبيبي... يمكن ما ترتاح إلا على سريرها وفي بيتها، ليش تحب تثقل عليها..؟!!!

هاج خالد.. وماج.. وصاح...

– اسمعي يا (...) إنت فرّقتي بيني وبين أُمي، والآن بتبعديني عن أختي، والله لو سمعت هذه النغمة منك مرة أخرى.. فأنتِ طالق... طالق بالثلاث.

وضعت فاطمة عباءتها على رأسها واتجهت صوب الباب وقالت...

– أسألك الله تأخذني إلى بيتي، فأعصابي لا تحتمل أكثر من ذلك، يكفي أننا فقدنا أُمنا، وفقدنا طارق، وللتو زوجته، وما ندري ما سيأتي من أقدار...!؟

منّ الله على الإبنة البارة بأمها وأكرمها ايما تكريم، حصلت على شهادة إتمام حفظ القرآن الكريم وتزوجت سعيد الذي ألبسها تاج الحب، ولم يكن ليناديها إلا البارة فطوم...

أما خالد فقد طلق زوجته، وتزوج صديقة فاطمة الحافظة لكتاب الله، وقد علمته كيفية غسل الموتى. فصار يداوم على هذا العمل محتسباً فيه الأجر لوالدته..

تمت... لندن نوفمبر 1978 للميلاد

وَلا تَنْهَرْهُمَا

كان الدنيا بالنسبة إليها.. كان الدفء الذي تركن إليه. ابنها الوحيد.. فمن هو أغلى منه؟!.. لا شيء في الدنيا أغلى من عمر...

مات زوجها ولم يُرثها إلا الحجرتين الطينيين في أفقر أحياء الدمام، وعمر.. ابن السبع سنين.

احتضنته في قلبها، وألبسته من دفء حياتها، لا تلبث أن تغيب عنه ساعة حتى تعود والوله قد ملأ قلبها..

خاطت له ثوباً، ألبسته الكوفية، ملأت شنطته بالدفاتر واصطحبته إلى أول يوم في المدرسه المجاورة، انتظرته بالقرب من باب المدرسة حتى خرج في وقت الظهيرة. كانت ترتعد عنه من نسمات الهواء، ولفحات الشمس، كانت تخاف عليه من عبث الصبية.. وسفاهة المراهقين.

كانت كذلك طوال طفولته الغضة...

مرت السنون منتشية بالحب والوئام حتى اختير للابتعاث إلى أمريكا للدراسة، طلب إلى حبيبة عينه أن ترافقه، إلا أنها اعتذرت منه كي لا تلهيه عن نجاحاته، فانثنى إلى ركبتيها يتلمس قدميها، يرجوها أن تسامحه على كل شيء، وأن لا تحرمه دعواتها.

كان التواصل مع أمه صعباً، حيث لا تملك هاتف، فكان يتواصل معها عن طريق الأصدقاء والجيران، ومن خلال رسائل كان يبعثها مفعمة بشذى الحب.. وعبير الطاعة.

تخرج في الجامعة دكتوراً في الفلسفة، فطلبت منه أمه أن يعود

إلى دفئها وحنانها، فرفض محتجاً بتخلف المجتمع... رجته أن يعود... فتمادى في تجاهل رغبتها، فذهبت إلى كابينة الهاتف العمومية، راحت تصيح وترجوه أن يعود فقد يئست الوحدة، ملت بُعده.. رجته ولكن.

أغلق السماعة...

مرت سنون ولم يعد، فشاع في المدينة أنه توفي في حضن شقراء...

بينما أمه ظلت تبكيه لسنوات حتى وافاها الأجل المحتوم واراها الجيران الثرى في مقبرة الدمام.

تمت... يناير 2012 للميلاد

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ

وجدته مطرقاً رأسه على أحد الأرصفة في شارع المكرونة.

مددت يدي إليه.. صافحته.

رفع رأسه، إذ به رجل في السبعين، أسمر، وعلى وجهه تكوم البؤس والألم، ثيابه الرثّة توحي بأنه جاء من سفر بعيد.. بلا مأوى..

أدخلت يدي في الجيب وأخرجت 10 ريالات وقلت له: إدعي لي.. يا شيخ.

نظر إلي بقسوة... وقال..

- جزاك الله خير، إذا أردت الإحسان، فأوصلني إلى دار العجزة في شارع الستين.

- تفضل... يا سيدي

ركب السياره وظل صامتاً نظراته منكسرة ومنحدرة باتجاه قدميه

شققت الصمت بسؤاله عن اسمه ومن أين هو؟!

نظر إليّ بالتفاتة هادئة ثم شهق بقوة وانطلقت على خده دمعات غزيرة مترعة بالألم

- أرجوك... أسرع أوصلني إلى دار العجزة.

حوّلت مسار سيارتي إلى كورنيش جدة الشمالي، وقلت له، سنتعشى سوياً!

أومأ برأسه ثم أشار بيده مبدياً موافقته.

وبينما نحن نتعشى، طعنت الصمت المنسدل علينا، فاستحلفته أن

يحكي لي حكايته، رد بصوت متهدج...

- يا ولدي مالك ومال الهم...

غمرنا الصمت لدقائق... ثم انطلق لسانه يحكي قصته.

كان ولدي الوحيد سامي يتيم الأم فقد توفيت أمه وهو في الرابعة من عمره. شق عليّ حاله ووحدته، فطلبت التقاعد المبكر من العسكرية، وبراتبي المحدود رحت أؤثره على نفسي في كل شيء، ولما بلغ السابعه أدخلته إلى المدرسة، كنت اصطحبه يومياً كل صباح وأنتظره حتى «الصرفة» بعيد الظهر، مرت علي أيام أصلي الظهر بجانب بوابة المدرسه كي لا يخرج ولا يجدني فيتيه في الشوارع الضيقة.. أو يتعدّى عليه أحد الأطفال.

كنت أذاكر له دروسه رغم محدودية تعليمي حتى كبر في كنفي ودخل الجامعة، لم يكن سامي إلا ذلك البار الوفي، فلما منحته الجامعة راتباً شهرياً كان يأتي به إلي كاملاً غير منقوص، أصر مراراً وتكراراً على أن لا يأخذ منه شيء، فكنت أضع خمسمائه ريال منها في جيبه وألزمه بقبولها كمصروف له...

وقبيل تخرجه اقترضت من بنك التسليف، فاشتريت له سيارة صغيرة، ليتنقل بها من وإلى عمله الجديد، لكن الحظ لم يحالفه، فكلما قدم على شركة رفضته بدعوى عدم إجادته اللغة الإنجليزية، ذكر لي هذا مرات، فقلت له يا ولدي، نحن لسنا في بلاد الإنجليز حتى يشترطوا عليك إجادة لغة غير لغة القرآن... إلا في ما هو ضرورة.

بقي عاطلاً لسنتين تقريباً، كان ينام فيها حتى الظهر، وإذا صحا من نومه خرج ولم يعد إلى البيت إلا في منتصف الليل، نهرته كثيراً.. وكان عذره الدائم...

- إيش أسوّي؟...

بعد سنتين من «العطالة» لاحظت عليه «تدين» أفرحني بدايةً، أطلق لحيته ولبس اللباس بلا إفراط أو تفريط، وكان لا يترك فرضاً في المسجد.. ولا ندوة أو محاضرة، وما هي إلا أشهر حتى تغيّر الولد، فدخل ذات ليلة إلى البيت في غيابي، فكسر التلفزيون ورماه في الشارع، ثم دخل إلى غرفتي وقطع كل صوري التي جسدت أحلامي وطموحاتي في العسكرية، تغيّر بشكل مريع حتى لهجته تغيّرت. جاءني ذات يوم يعاتبني على تفريطي في حق الله لأنني كما قال عسكري ولديّ معرفة بعلوم الحرب ولم أسخرها للجهاد، قلت له يا بني:

– لأنني نشأت عسكرياً، تعلمت أن لا أشُق عصى طاعة قيادتي وولاة أمري. فالحروب لا يخطط لها بالعواطف إنما بالعقل الواعي الذي يستقرئ الإمكانات والظروف من كافة النواحي الإجتماعية والإقتصادية والعملياتية، والظروف المناخية... الخ

أستهجن ردّي، فلم أعِ في اليوم التالي إلا على ظلال اختفائه لسنوات، لم يتصل بي ليطمئن علي أو ليطمئنني عن نفسه. بعد فترة من الزمن علمت أنه ذهب إلى أفغانستان للجهاد، فتخالطت أفراحي وخوفي ثم أقنعت نفسي أن طلب الشهادة في سبيل الله حق، وقد كانت أمنيتي طوال عمري في العسكرية، فنحن جنود لله في أرض الله، ندفع الصائل والمعتدي على بلادنا وأموالنا وأعراضنا.

بكيت كثيراً في وحدتي، تمنيت أن يعود لأشتمّ رائحة الجهاد فيه، تمنيت أن أحثي شيئاً من التراب الذي داس عليه بقدميه على وجهي.

وبينما أنا في مدخل المسجد ذات فجر إذ بإبني سامي يمسح على ظهري وراح يقبّلني في يدي وعلى رأسي وصدري حتى انثنى إلى ركبتي. بكيت صراخاً من شدّة الفرح حتى سمعني كل من في المسجد، وظللت أشهق من البكاء في صلاتي، ثم أخذته إلى صدري، رحت

أقبله ودموعي تهطل كالمطر،آآآآيه هذا سامي أخيراً بجانبي، وقد حصد من فضل الله أجر الجهاد ودحر السوفييت الذين احتلوا بلاد الأفغان.

اشتريت له سيارة أجرة، عمل عليها وكان يكسب الخير الوفير ثم لا يأتي مساء إلا وقد حمل لي شيئاً من السوق... قال لي ذات يوم..

- يا ابتي... أريد أن أزوجك

- قد مضى بي العمر، وأنت أولاً يا ولدي.

- ستزفني إلى عروسي قريباً.. إن شاء الله.

فرحت كثيراً وتمتمت لعله يريد أن يفاجئني بشيء عما قريب.

ولم يمض على حديثنا إلا أيام حتى اختفى عن ناظري، سألت عنه كل من أعرف أو لا أعرف، فالحرب انتهت، والسوفييت قد أُخرجوا رغماً عن أنوفهم، فأين هو إذن؟!

نظرت إلى سيارة الأجرة وقد تركها عند البيت، فعاث بها الصبية، تذكرت خروجه الأول للجهاد فقلت لا بد أنه رحل إلى بلاد إسلامية أخرى دهمها المحتلون، أو لعل العدو عاد وذهب مع المجاهدين لدحره مرة ثانية، كنت أسلي نفسي وأعزيها بقصص وخيالات وبطولات في أرض أفغانستان.

وفي صبيحة يوم السبت 14 رمضان 1424 هجرياً انقضت مجموعة إرهابية لعلها عصابات صهيونية على تفجير مجمّع سكني...

تبيّن لي أن ابني كان من بين الإرهابيين... رأيت صورته مقطعاً إرباً في حين أن الذين غرّروا به يسرحون ويمرحون.. ومالئون البطون، حتى أن جلهم قد تمسك بسنة التعدد.. واستحل دماء الأبرياء...

أفقت في المستشفى من غيبوبة ثم نظرت حولي ولم أجد من يواسيني، فقاطعني أقربائي، وبعض أهل المسجد، قلت يا ناس: يقول الله «لا تزر وازرة وزر أخرى»..

لم يتبق لي إلا القليل من الأصدقاء والأحباء، فبعت بيتي في الحارة وتبرعت بكامل دخله إلى ضحايا التفجير الدنيء، شكرتني الداخلية على جليل الصنيع، وقررت السكن في دار رعاية المسنين لعلي أقضي ما تبقّى من عمري، فلم يبقى لي لا ولد ولا تلد. توقف عن الحديث وراح يبكي بحرقة، نظرت إليه... وقد أطرق رأسه خجلاً من صنيع ابنه. فقلت له..

- يا شيخ... صدقت كونك ذكرت قوله تعالى ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...﴾، فهل تقبل بي إبناً لك فأنا يتيم الوالدين.

قال.. وهو يغتصب الابتسامة.

- شكراً لك يا ولدي.

قبّلت رأسه وودذعته إلى لقاء قريب...

تذكرت الرجل ذات نهار، فانطلقت إلى دار الرعاية لزيارته، طرقت باب الغرفة إذ برجل أبيض طويل قد فتح الباب، سألته:

- أين الشيخ عبدالرحيم..

- أدعو له بالرحمة...

- ها... مات... متى... ؟

قال وقد تناثرت الدموع في عينيه...

- الأسبوع الماضي يا ولدي. كان يحكي لي قصة خروجه مع شاب أصيل كريم إلى العشاء، وبينما هو يعدد محاسنه لي غرغر وتشهد ثم فاضت روحه إلى بارئها.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

فبكيت كثيراً على فقده، لأني وجدت فيه اباً محروماً مكلوماً فرجوت الله أن يبلغني ثواب معاونته للخروج من مصيبته. لم يخطر

ببالي أنني قد اصطحبت رجلاً ميتاً إلى عشائه الأخير.

ثم وعيت وقوفي أمام الباب.. فسألت

- وما حكايتك أنت يا والد...

قال... أنا وأغلب الذين تراهم في هذه الدار ضحايا «العقوق» يا ولدي.

نظرت إلى الأرض في حزن يكاد يجتث روحي من شراييني...

قلت.. أيننا من قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ...﴾

تمت نوفمبر 2006

وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا

1

صراخ وعويل يملآ الغرفة.. يقطّع نياط القلب!

صرخت فاطمة... أمي ماتت، انتقلت إلى الرفيق الأعلى بعد عناء امتد عشرة أشهر، حمل في أحشائه شهقات...

لقد توفيت المرأه العظيمة.

لم تكن وفاة غزوة بالهينة على قلوب أبنائها وبناتها، ثمة فراغ كانت تملؤه وهم لا يشعرون به، إلا أن غيابها أيقظهم من ذلكم السبات.

غزوة بلغت الثالثه والثمانون حين وفاتها. وطيلة السنوات التي قضتها على وجه الأرض كانت تلكم الأم الرؤوم التي تؤثر ما بيدها لصغارها.. تحرم نفسها من ما تشتهي لتلبي لهم كل ما يشتهوا.

تزوجت وهي ابنة الثامنة وأنجبت في الخامسة عشرة. تجربة ممتدة.. أضافت لها الجيرة والرفقه الطيبة الشيء الكثير.

حملت إلى قبرها نفس وجه ابنة الثامنة... لم يتغير إلا بتلكم التهدلات البسيطة على الوجنتين. أبت التجاعيد أن تغتال وجهها أو حتى أن تقترب من بقية جسدها إلا أن هشاشة العظام أوقفت حركتها الدؤوبه فامتلآ جسمها. كانت اتكاءتها على عصاتها ومشيتها الهادئة عنوان لشخصيتها الحالمة.

ثمة حساد ابتدعوا عليها أنواع المكائد فعاشوا وبالها الذي ارتد

عليهم فأثخنوا بعفونتها، بعضهم اليوم يلطم الخدود ويشق الجيوب من قسوة الندم...

النعم الكثر التي صبت لها في كأس مفعمة بالبركات، فاضت في أركان حياتها ممنوحة لقلبها المؤمن ولركعاتها المخلصة في مهجع الليل.

توقفت الحياة بعد رحيلها، أصبحت الأشياء مرّة، كل الأشياء بطعم العلقم حتى عناقيد العنب المتدللة من الصحن الدائري على طاولة الطعام. وكل ما تفننت في جمعه وعشقه.. كله متروك في غرف البيت بعشوائية، تعملق عليه الغبار، وغمره إحساس الهجران والفقد. أما «مواعين» المطبخ التي مثلت رمز عشقها فكانت أكثر الأشياء إيلاماً وحزناً، كل شيء يعيش اليتم الآن.

ولدت غزوة لأبوين طيبين، اشتهر بيتهما بالدفء والذوق الرفيع، بيتهما الواقع في زقاق مزدحم بالناس مأسور في أدخنة العود والمستكة. كان العبير ينساب من رواشين ذلكم البيت الصغير.. يسكن ثياب المارة.. حتى تسمع بعضهم يردد الدعاء والشكر لأصحاب البيت:

- جزاكم الله خير على هذا العبق الطيب الذي أكرمتمونا به.

فاشتهر بين الناس هذا البيت بالطيب في الخلق.. والطيب الذي يعبق الزقاق!

والدها رجل متدين.. لطيف.. دمث الخلق. يتوقف عن العمل في «القهوة» التي يعمل فيها لمجرد سماعه الآذان الذي ينطلق من المسجد المجاور.

تعد القهوة التي يعمل فيها «صبي قهوجي».. إستراحة شهيرة للمسافرين.. القادمين إلى جدة.. أو العابرين إلى مكة أو المدينة. ولكثرة المستريحين فالعمل مضني إلا أنه لم يبعده عن ممارسة التجارة

البسيطة. عملاء القهوة يستمتعون بشراء الصندل والعود من العم محمد، فثمة رقي في التعامل وثمة جودة في البضاعة.

يصادفه عملاء للقهوة قادمين من قبيلته في الجنوب، بعضهم لا يعذر حاله وتعبه وكده، فيقبل الإستضافة لمجرد دعوته له. لا تلبث زوجته رضوى أن تعد أشهى الموائد التي تميزت في صناعتها. ذات يوم قال أحد أبناء قريته، والله لو كان لها أخت عزباء لما برحت مكاني هذا إلا وأنا متزوجها.؟! من أين لك هذه المرأة يا رجل؟.

من هذه الثروة الطائلة نهلت غزوة أخلاقها الحميدة.. وتميّزها وتفردها في كل شيء. لو صح للإنسان أن يصف شخصاً بالملائكية لوجدت الكثير يغدقون عليها من صفات الملائكة.

مذ نعومة أظفارها وهي تلكم الحشيمة، الأديبة التي لا تغيب عن أمها لحظات حتى تعود لتقبّل رأسها ويديها.

تقدم إليها شاب أبيض البشرة ينحدر من أسرة كبيرة، ولما رآها تلعب في التراب، ضحك على صديقه الذي رشحها له... وعاتبه بقوله..

- عيب عليك يا رجل.. تزوجني طفلة عمرها ثمانية سنين.

- يا سليم.. هذه تتفجر أنوثة.. وسيأتي يوم تراها في صومعة حبك.. الرجل يتزوج العائلة ولا يتزوج العروس. هذه عائلتها كما ترى! حشمة وذوق.. وفن في كل شيء!

طأطأ رأسه.. وقال لا بد أن أقدم المهر اليوم إذن.

- كم مهرها يا عم!

- يا ولدي.. نحن «طلاّبة» خير.. صداقها حبك ووفائك.. واللي تقدمه هدية لها فهو من فضل الله ثم من فضلك.. (قال العم)

أدخل سليم يده في جيبه وقد أسكن فيه مئتا ريال فرنسي.

- خذ هذه يا عم.. وإذا نقص شيء أنا رقبتي سدادة!

- لا يا ولدي كفاية.. وزيادة.

دخلت العروس.. وتم العرس في ابتهاج عائلي امتنع عنه بعض اخوانه وأفراد عائلته لأنه داس على شمائل القبيلة وتزوج من قبيلة أخرى!

واعيباه!!.. واعيباه..!!

حتى المرأة التي أتزوجها تريدوا فرضها عليّ، المرأة التي أسكن إليها وتسكن اليّ تطبعوها في مراسمكم. ما هذا الحكم الجائر ؟!.. أنا من يحدد.. أنا من يختار.

وبهذا فقد اختار لنفسه وزوجته الطريق الأصعب.

قاوم كل ما شُن عليه من أجل الإبقاء على عروسه. ضرب بأحكام القبيلة عرض الحائط مقابل هذا القرب... هل في هذا معصية لله؟ كان يتساءل!.. إذن لماذا يحاربني المعتوهون؟!.. فليكن ما يكن؟!

وفي ليلة الدخلة تفاجأ بعروسة مربوطة بحزام جلدي مشدود على فخذيها يشُد قطعة نحاسية حول العورة الغليظه.

صاح.. أرعد.. وأزبد.. ما هذا ؟.. أنا بعت كل من رفض هذا الزواج مقابل القرب والسكن إليك.. الآن أجد نفسي حبيس قطعة حديد!.. تحت عنوان «حزام العفة». لم تستطيع غزوة الإجابة.. فهذه الأمور غريبة عليها أصلا.. وهي لا تعي الموضوع برمته.. بل إنها كانت تعتقد أنها من طقوس الزواج. ولم تعي أن هذا قد تسبب له في مذبحة لرجولته في ليلة يتمناها كل إنسان.

ما زال العريس يصيح حتى سمعت هياجه رضوى التي تداخلت معه في الحديث وقالت بحدة هذه طفلة ولن تقربها إلا بعد أن أفك

حزام العفة.. فهمت.. وهذا المفتاح عندي! ثم وضعته في مخبأ داخل صدرها.

يا ويلتاه... أأعيش مع إمـرأة ربطت بين فخذيها بالجلد والحديد..؟!.. لا يمكن أن أقبل بهذا.. هذا ضحك على ذقني.. فشده كبرياءه وصاح بأعلى صوته:

- يا عماه المؤمنون عند شروطهم.. أنا تزوجتها.. لتكون سكن لي!.. وهي زوجتي.. ولابد لي أن أعيش معها كزوج وزوجة.. وأنت الآن وضعت حائل بيني وبينها!

وبعد أخذ ورد.. استطاع عمه أن يكبح عدوانيته.. وأشعره بأن لابد له من الاستسلام للأمر الواقع. الطفلة لا تحتمل أن تراه بين يديها فكيف إذ سامرها بالحب.. والعشق!.

إنها تؤذيني في مشاعري وتكسر كبريائي... (قال)، كانت كل تعبيراته العنيفة.. تترجم حالته النفسية والحرمان الذي فُرض عليه. فالعصا التي يحملها في دخوله وخروجه من البيت.. آلة الرعب التي أسكنها ظهرها وفخذيها عند أي تافه لا يرضي غروره. كان الحرمان القاسي عليه.. أقسى عليها من كل شيء! فالضرب المبرح نبش أخاديد حمراء في ظهرها وعلى فخذيها.

حرم الزواج الطبيعي..

حرم قرب والده.. وأخوانه..

حرم ترانيم القبيلة.. وتفاخرها به!

تساءلت غزوة وهي جالسة القرفصاء في ركن الغرفة..

- هل يجوز أن أكون ضحية حرمانه. مالي وأنا الطفلة التي كانت تعيش بين جدران ذلكم البيت الطيب الهادئ المملوء بالحب والروائح الجميلة.. أقدم جسدي قرباناً للحرمان الذي يعيشه زوجي.

ما الحل؟!!.. هل ألملم أشيائي وأهرب إلى بيتنا.. هل يقبلني أبي!؟.. هل سيلحقني زوجي ويضربني بعنف ؟!!

هنا خوف.. هناك خوف.. !!.. والخيار بينهما تحكمه ظروف المخاطرة..

لابد لها أن تتخذ قرار.. ولكن كيف لهذه الطفلة التي بالكاد تسحب قدمها بأمان بين غرف الدار، كيف لها تهرب إلى الحي البعيد لتصل إلى دار والديها وهي لا تعرف الطريق أصلاً. كانت تمشي خلف زوجها داخل أزقة ضيقة ومظلمة لا تعرف لها بداية أو نهاية.

إذن ما العمل..؟ تمتمت

تكومت بجسدها النحيل في أحد أركان الغرفة منتظرة سياط الألم تخربش على ظهرها.

2

ذاع صيت زوجها في المدينة الجديدة التي هاجر إليها، فلا تجد مجلساً إلا وتذكر فيه شمائله.. وكرمه فهو بدايةً من التجار الأمناء الذين بلغوا شأناً في السوق وحققوا أرباحاً وفيرة. أما عملاؤه فمن النبلاء والمثقفين.

رغم هذه المكانة، وتلك الخلطة إلا أنه ينقلب فجأة إلى شيئاً آخر غير ذاك الرجل إذا ما دخل إلى داره، يملأ المكان بصياحه الهائج، يشد «البقشة» على خصره، ويضرب بسوطه على أركان البيت وكل ما وقف أمام ناظريه ثم يرقب كل شيء ويتفحص أي شيء حتى يجد ما يبرر به شدته وعنفوانه، فينطلق بسوطه على ظهر غزوة.

لم تعِ الطفلة غزوة المقذوفة بين يديه معنى الزواج، ولم تدرك من شدة خوفها وارتعادها معانيه السامية، فكتمت سر الآمها وضمرت في جوفها الدموع. عاشت لسنوات في جوف الألم حتى صار كما انفاسها الثقيلة وهي تتمرغ بين يديه لا تلبث أن تنظر إليه راجية رحمته وعطفه.

اشتمت رضوى رائحة العنف في عينيها، وطلبت إليها هتك سر رعداتها واضمحلال ابتسامتها إلا أنها خافت على زهرتها من الذبول ورونقها من الانطفاء، فآثرت البقاء عند والديها متسربلة في دفئهما حتى عاد سليم من السوق راح يصيح بأعلى صوته.. فتلقفت صياحه رضوى بحنق لم يعهده من قبل وقالت...

- ما عندنا لك «حُرمة»...

استغرب جفاف لهجتها الخادشة عرش عنفوانه، فأرعد وأزبد

حتى خرج إليه العم محمد ووبخه على فعائله المشينة والتي التقطها من شهقات غزوة التي قصّت عليهما كل شيء حتى السوط الذي رسم التجاويف الحمراء على ظهرها. وعى سليم وأقر بخطأه ثم وعد عمه أن لا يعود إلى تعنيفها، وقد كان العم محمد بمثابة والده النصوح.

ثمة أمور حدثت في بارحة الليل لم تفتش عنها غزوه لوالدتها من شدة الخجل، فقد قطّع سليم حزام العفه بعد خمس سنوات من المنعة والحرمان. ولما قضى وطره، فارت في داخله الرجولة المغيبة لسنوات فقبّلها وطلب إليها أن تسامحه عن كل ما بدر منه في الأيام الفائتة.

تمتمت غزوة...

هذا الحزام يجب أن يكون في «القمامة» لقد كان سبباً في عذاباتي، أبداً.. لا يستحق إلا أن يسكن مرمى النفايات... فقذفت به إلى النسيان حاملاً معه كل المآسي والآلآم.

اتسعت الدنيا في أفقهما فالتم بين يديهما الحب وتكوّمت في عينيهما الرحمة والمودة، وعرفت غزوة حاجاته ودرست مكنوناته فكان إذا ما عاد من متجره منهكاً يسقط بين يدي عطفها بشغف، فتحيطه بدفئها وتلفه في حنايا قلبها الكبير. ذاك القلب الذي أضاء لها سماء الود وروى بداياتها بالصبر، فأصبح الصبر لها مفتاحاً للسعادة. فلم تترك غزوة شبراً في أفق حبهما إلا وروته من عبقها حتى انجرف قلبه إلى محرابها وانطفأت فيه جمرات الغضب للأبد.

سنوات مضت وذلك الشاب لا يرى إلا بعينيها.. ولا يتكلم إلا برطابة لسانها.

3

استعرت الغيرة في قلب زوجة أبيه فقد كانت تغتاظ من ربوضه في صومعة حب أمه التي شاركتها فراش زوجها، فنكاية بها ونكاية به راحت تضربه بسياط العصيان، فألبت أبيه عليه وقد كان عده عاصياً كونه رفض قريبة زوجته من أجل عيني غزوة.

اغتم سليم من زعل أبيه عليه فراح يتكبد مشاق السفر مرات تلو المرات ليشتري رضاء والده بكل ما أوتي من قوة وصبر وحلم ومعرفة إلا أن والده لم يكن ليرضى إلا بمذبحة الحب.. ومسلخة العشق.

لا يمكن!!

إلا هذه يا أبي..!!

فارتمى بكل جسده بين يدي أبيه وصاح

- أقتطع أي شيء فداء لغبار رجليك... إلا هذا (وأشار إلى قلبه) ففيه تسكن غزوة

- طلقها يا بني..

- لا...

وأردف قائلاً...

- أبي هذه حياتي، ولو راحت.. لراحت روحي معها..

قال بحدة...

- عجيب!! ثم سكت..

ولا تلبث غزوة أن تحث زوجها على المحاولة تلو المحاولة...

– حاول.. لا تيأس.. ولا تبتئس.. فكل ما جاءني من ما تعتقده صفعات مؤلمة لا يتجاوز كلمات تحرقهم في حناجرهم ولا تصل إلى قلبي أو جسدي. أنا فوضت ربي فلا تخاف على من فوض أموره لله.

قال.. وقد ملأت قلبه بإيمانها وصدق سريرتها...

– إن إيمانك العظيم بالله، يدفعني لأن أكون أكثر تعلقاً بك.

ثم وقف هنيهة يصب من غيثه الهاطل في عينيها وعلى خديها...

– يا الوجه الصبوح بدونك تهتز الصفوات في قلبي وتسود السموات في أفقي.

ابتسمت.. وازداد وجهها إشراقاً..

لا يمكن للمشاعر الصادقة أن تسقط أبدا.. لا بد أن تعيش.. وتخلد في قلوب الناس. نعم.. إذا نظرت في المرآة.. لترى السنوات الماضيات.. ترى ذلك السوط الذي كان يتباهى به.. يحفر الأخاديد في جلدها، لكنه اليوم تحول إلى سوط ينفض غبار العتمة ويفيض بالمشاعر الدافئة...

المشاعر الصادقة، حديث بين قلبين وروحين متعانقين، وأحاديث القلوب والأرواح.. أحاديث مترعه بالصدق.. بلا كلام.. أو منطق.. أو عقل...

4

كادا أن ييئسا من «الِخلفة».. بل إن الشكوك حاصرتهما بسياج الخوف، رغم الإيمان المنغمر فيه قلبيهما، كادت لحظات الضعف أن تدفعهما لتصديق أقصوصة السحر التي شاعت عليهما مع تأخر الحمل. لقد عصم الله غزوة من الجارة التي أقسمت لها أن الشيخ عباس يستطيع فك «ربطها» بمبلغ زهيد وبقليل من الزئبق الأحمر.

تمتمت... ما هذا إلا كذبٌ عظيم. يا جارتي العزيزة... لا تصدقي هذه التّرهات، فمع ايماننا بالسحر والعين لأنهما مذكوران في القرآن، إلا أننا نؤمن أيضاً أن من يتحصن بذكر الله يعصمه الله منهما ثم إذا أراد الله لشيء أن يكون سيكون، ولن يضرّونا بشيء الا بمشيئة رب العزة والجلال لقوله تعالى: ﴿... وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾.

فيا جارتي العزيزة خلي الشيخ عباس «يغور».. نحن مؤمنون بالله.. وبقضاءه وقدره.

قالت الجارة بطريقة شيطانية

- كيفك يا غزوة تشوفي إذا ما انعقدتي طول عمرك.

حسبي الله ونعم الوكيل، هكذا صارت تردد غزوة. ما هذا..؟!.. هل هذه الشيطانة من أقرباء الشيخ عباس أو المنتفعين منه.. لا أقول ربما.. بل بكل تأكيد.. ولو أن بعض الظن إثم، لماذا تريد أن تدخلني في هذا النفق المظلم. لقد سمعت ذات مرة أن جارتنا ام صباح ذهبت

إلى الشيخ عباس فذكر لها أدق التفاصيل في داخل بيتها ومخدعها ولون شرشف صلاتها وموضع سجادتها. ولما أخبرت زوجي ضحك وقال..

– من هذه الشيطانة التي تدخل إلى بيت جارتك؟ تسجل التفاصيل ثم تتقيأها بين يدي الدجال.

الدجالون يبيعون بضاعتهم الفاسدةه في سوق الجهلاء والسذج!.. لأنهم أسهل الناس للابتلاع.

مضت الأيام وإيمان غزوة يتعاظم وعلمها الشرعي يتزايد فقد كانت تجثو على ركبيتها أمام زوجها ليشرح لها كل ما نهله من مجالس العلم التي ارتادها. فبارك الله لها وسقاها من فضله حتى أن جاءتها البشرى في رشفات من ماء زمزم كانت توحمت عليه في أول حمل لها، فمنّ الله عليها بابن أسمته سعد.

ملأ سعد حياتها فسجنته في عينيها ولقمته ثديها لتهبه الحياه. لم تلبث أن تفرح بنظراته الحالمة وبكائه الرقيق حتى تكوم في قلبها الخوف من تباطىء حركاته والتفافه على نفسه وتكور جسده.

فدخلت عليها الجارة المشئومة أشعلت في جوفها جمرات الخوف...

– ولدك مربوط

– يعني إيه؟

– يعني مسحور..

حاولت المأفونة أن تبيع بضاعتها الفاسدة من خلال ضعف غزوة وأمومتها المنكسرة امام طفلها البائنة عليه أعراض المرض، إلا أن الإيمان أضاء طريقها وفتح أفاق الخير قبالتها حتى استسلمت لآيات

من القرآن راحت تستلذ بمعانيها وتتجلى في فيوضاتها.

فبارك الله لها، فثمة تحسن بدأ يتسلل إلى جسد طفلها النحيل ولم تنقضِ السنين الخمس الأول حتى فاض بحيوية ونشاط، فتحول الطفل المكبّل إلى رجل سليم. وتوالت بركات الله عليهما بثلاثة عشرة من الأبناء ماتت منهم بنتان.

5

عرفت بوجهها المستبشر..وشخصيتها الطيبة.. وكرمها حتى أحبها من حولها ومن سمع عنها. كانت تؤثر أي أحد على أي شيء.. ثمين أو غير ثمين، وكانت آلتها الحاسبة.. بلا أرقام.. فلغة الأرقام لغة من انكبوا على حب الذات.. أو الانتفاع... أما هي فكان العطاء لوجه الله الكريم جزء لا يتجزأ من تكوينها وشخصيتها وانصياعها لقوله صلى الله عليه وسلم: «تهادوا تحابوا»

كان الفقراء يبسطون عند بيتها، وتحظى النساء منهن بالعمل فيه فقد كانت تجزل لهن العطاء مقابل أي عمل. لم تكن تسأل من أين آتين، وإلى من ينتسبن. فقد كانت تغدق عليهن بالعطايا حتى أولئك الذين امتدت ألسنتهن عليها ذات زمان.

إقتربت من الذين ابتعدوا فكانت لهم خير سند، فداومت على وصلهم. أما البعيدون فلم تترك إليهم سبيل إلا وطرقته، فكانت تقسم لهم من العطايا والهبات، فبنت دوراً لليتامى ومساجداً للمصلين.

ثمة أحـزان كانت ترتسم على وجهها لمجرد سماعها أن «الضعيفات» كما كانت تسمى أخواتها المسلمات في كل أنحاء الدنيا، قد ألم بهن جوع أو اجتاحت بلادهن العواتي. لملمت البطانيات.. والشراشف.. ووضعت كل ما تملك من الذهب الثمين في كيس بلاستيكي كبير ذات مصيبة حلت في أفغانستان اثر احتلال السوفيت لبلادهم، وطلبت إلى سليم أن يوصلها لهن.

حاول سليم إقناعها بالاحتفاظ ببعض المجوهرات التي ارتبطت بمناسبات عزيزة عليهما إلا أنها فضلت أن تدفع بها لمساعدة «الضعيفات» لتجاوز محنتهن.

دائماً ما تقتعد كرسياً أمام التلفاز لتسكب دمعات حارة على النساء والأطفال البائسة وجوههم والعاجزة حالهم.

- يا رب احشرني معهم..

6

تكالب على جسدها المرض، فالمؤمن مبتلى... فعلاً المؤمن مبتلى.. وإلا مثلها صرفت عمرها راكعة ساجدة.. وفي الليل هاجعة.. تصيبها كل هذه الأمراض!؟ لا بد أن يكون المؤمن مبتلى!..

سحقها الأطباء بالأدوية الكثر ليرفعوا حصصهم في الصيدليات!.. لم يكن الأمر كذلك على أيام القصيبي رحمه الله. كان مديرو العموم قبل الفراشين.. يعملون بإخلاص.. ومن فاته أن يتعلم الإخلاص في العمل.. لا تخطئه لسعة من قرارته الحاسمة.. إما أن تنطح به إلى آخر الصفوف.. أو حتى تلغي اسمه من قائمة الطب وشرف مهنتها.

جل الأطباء شرفاء ولديهم قسم أبوقراط.. ويعملون بما يمليه عليه ضميرهم ودينهم. إلا أن بعضهم لم يكن يقرأ أبوقراط.. إلا أبو خراط؟! فيعملون بما تمليه عليه جيوبهم واتفاقات الصيدليات القابعة في بعض الدكاكين المسماة مستشفيات.

قلب الدكتور شرف كيس الأدوية الكبير...

- ما هذا..؟!

-.....

- من الذي وصف لك كل هذه الأدوية، لا حول ولا قوة إلا بالله. هذا كورتيزون لست بحاجة له، وهذا..وهذا..

سألها الدكتور..

- كم لك تستخدمين هذه الأدوية..؟!

أجابت بصوتها المنهك من شدة الأعياء..

- سنين كثيرة.. لا عد لها ولا حصر!!؟

التفت الدكتور إلى ابنتها فاطمة وقال...

- نحتاج إلى برنامج كامل لسحب الدواء هذا كي نتفادى الأعراض الانسحابية.

التزمت ببرنامج سحب الدواء فظهرت عليها بشائر التعافي وعادت الإشراقة إلى وجهها، لم يبق عليها من مظاهر المرض البائن إلا علامات الكبر التي زحفت إلى وجهها وعظامها التي اغتالتها الهشاشة.

مرت سنوات والحال من تحسن إلى أحسن حتى شعرت بألم شديد في صدرها.. واحتراق.. وصفته كالنار المشتعلة بين أضلاع صدرها، فوصف لها الدكتور «غافل» دواء وطلب منها إيقاف مسيلات الدم لإجراء قسطرة لقلبها.

توقفت غزوة عن مسيلات الدم لثلاث أيام ثم ذهبت إلى موعد القسطرة المقررة إلا أن الطبيب المعالج قد غيّر الموعد دون سابق إنذار.

قالت الممرضة لها...

- ماما دكتور ما في يجي!

- يا بنتي أنا عندي موعد قسطرة اليوم الساعة الثانية عشرة.

- ايه ماما.. أنا يفهم بس دكتور ما في يجي.

عادت إلى دارها وقد احتارت في أمر نفسها، فكان اليوم الرابع من ليلة السبت حيث اجتمع عندها بناتها وبعض أحفادها دون سابق

ميعاد، حملن معهن أطباقاً متنوعه ملأن بها سفرة لم تكن كذلك لو خطط لها.

غاصت معهن في أحاديث الصبا وحبها الكبير مع سجين قلبها سليم، ملأت عليهن ليلتهن تلك بالضحكات اللذيذة حتى انتصف الليل فقامت من مجلسها بعد أن رددت كفارة المجلس «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك».

7

أصبحنا وأصبح الملك لله...

سحبت قدميها إلى المطبخ الواسع وجلست على الأريكة الممتدة وشرعت في سنة الضحى وبينما هي كذلك إذ شعرت بوخز شديد في صدرها، تحاملت شدته حتى فرغت من الصلاة. التقطت بيدها المرتعشة الهاتف...

- يا سعود انتبه على أبنائك من حمى الضنك المنتشر في حي الأجواد.

ثم سقطت السماعة من يدها... حشرجت ثم غابت عن الوعي...

صاح الجميع...

- غزوة ماتت.. ماتت

اخترق صياح خادمتيها فضاء السكون في غرفة سليم، فالتقط عكازه وراح يخبط الأرض مهرولاً إليها بتعب، انكبّ عليها، لمس يدها بكلتا يديه، تحسس وجهها وفمها ثم ذرف دمعات حملت في طياتها حب بوسع المدى...

نقلها ابنها وسام إلى المستشفى على وجه السرعة، فتحلق حولها الأطباء متحيرين بين الجلطة والنزيف حتى قصدها طبيب من خارج المستشفى فأجزم أن الجلطة قد اغتالت نصف الدماغ مما تسبب في دخولها في غيبوبة تامة.

في العناية المركزة غرزت الأجهزه في يدها وصدرها وحلقها حتى باتت كالشجرة الملتفة فروعها وأغصانها على عظمها، فتراخت

حتى فشلت وظائف التنفس الطبيعي.

- استجابت للتنفس يا دكتور

- لا

فأدخل جهاز التنفس الميكانيكي من الفم في محاولة لإنعاش فشل وظائف التنفس.

ظلت كذلك لأسابيع مقذوفة في حياة نباتية تلتقط الأنفاس من جهاز ميكانيكي وتبلل عروقها من خلال أنبوب أسقط في أنفها، ومغذيات في يدها. في الحياة النباتية لا يستطيع إنسان الجزم بأي شيء... حركات لا إراديه، نظرات شاخصة، تثاؤبات طويلة...

- هل تسمع يا دكتور...؟

- لا أعلم... يقولون!..

ظل صوت الشيخ سعود الشريم المنطلق من جهاز التسجيل يملأ الغرفة بروحانية، فبدت وكأنها تستمع في صمت.

وبعد أسابيع ممتدة في عمق الخوف والرجاء قرر الأطباء إزاحة جهاز التنفس المنغرس داخل بلعومها..

- لا بد من إجراء فتحة في النحر...

فأعيدت بسرعة إلى العناية فقد كادت أن تلفظ أنفاسها حين بدأ المشرط في ملامسة نحرها في غياب التخدير لمريض أشبه بغصن شجره مقذوف على سرير أبيض.

- ماذا يا دكتور...

- حاولنا فتح فتحة ولكن...

- ها... لا حول ولا قوة إلا بالله...

وفي المحاولة الثانية تم شق النحر وأسقط جهاز التنفس منها،

ظلت كذلك لأشهر عدة حتى نقلت إلى مستشفى النقاهة. هناك سقط أنبوب الغذاء الذي غرس في بطنها إلى أسفل الجلد فراح الالتهاب يتزايد.

– أعيدوها إلى المستشفى.. صاحت طبيبة النقاهة.

في إسعاف بلا منبه «ونان»، حُملت كجثة هامدة فغاصت سيارة الإسعاف في زحام المدينة. ابنها إسماعيل يضرب بعقاله على ظهر السيارات...

– ابتعد... «الحرمة» بتموت.

عاد إليه صوته محملاً بنظرات المستنكرين والمستعجبين والمتبجحين. في مثل هذه المدينة المزدحمة كل شيء ممكن حتى معاندة الموت أو الحرمان من الحياة.

عند بوابة الطوارئ نظر الأطباء إلى وجهها...

– ما الحالة؟

– كانت عندكم يا دكتور وهذا ما حصل.. فقصّ ابنها يونس القصه كاملة.

فظلت الشجره اليانعة تجف يوماً بعد يوم حتى صرخ جهاز القلب بصوت متصل ثم ارتفع مسبار التنفس، توقف... فجأة عاد بقوة... فصمت للحظة طويلة، ثم عاد في محاولات للعودة إلى الحياة... أخيراً توقف... كل شيء... حتى الغصة في حلوق المعزين.

تمت... جدة مايو 2007 للميلاد

قصص قصيرة مترجمة

الطاسة الخشبية

للكاتبة (أوشا بنزال).

ترجمة ابراهيم الدعجاني 2007 ميلادي

انتقل الأب العجوز النحيل البنية، للسكن مع ابنه وزوجته وابنهما ذي الأربعة أعوام. كان عجوزاً حتى أن يديه مرتعشة وبصره مشوش وخطواته متعثرة.

إعتادت العائلة الاجتماع لتناول العشاء على مائدة الطعام كل ليلة، إلا أن يد الجد المرتعشة، ونظره المشوش، أضفيا على عشاءاتهم صعوبات، فقد كانت البازلاء تتدحرج من ملعقته إلى الأرض، وكلما لمس كأس الحليب، انسكب على مفرش المائدة.

أثارت هذه الفوضى حفيظة الإبن وزوجته، «يجب عمل شيء حيال الجد» قال الإبن: لقد سئمت انسكابات الحليب على المفرش، الأصوات المزعجة، وتناثر الأكل على الأرض.

وضع الإبن وزوجته طاولة خشبية صغيرة في أحد الأركان، حيث راح الجد يأكل بمفرده، بينما هم يستمتعون بالعشاء على المائدة الرئيسية، ولما كان الجد قد كسر طبق أو اثنين، راحا يقدما الطعام إليه في «طاسة» خشبية، فلمحا دمعا في محجري عينيه يسقط على خديه المترهلين، إلا أنهما استمرا في معاتبته حينما تسقط من يده الشوكة، أو يتدرحرج من فمه الطعام.

كان ابنهما ذا الأربعة أعوام يرقب المشاهد بصمت.

وذات مساء، جلس الطفل ينجّر في بقايا الخشب المتناثر على الأرض، فسأله أبوه بلطف «ماذا تفعل يا بني»؟ أجاب «اوه أصنع «طاسات» خشب لك ولوالدتي»، ثم ابتسم وعاد إلى نجارته، هزت كلماته والديه، حتى توقف فيهما الكلام، وهطلت من عينيهما الدموع، ثم صمتا طويلاً.

وفي ذاك المساء، أخذ الإبن بيد أبيه إلى طاولة العائلة، فصار لا يأكل إلا معهما لبقية حياته، ولم يكترث أي منهما عما إذا سقطت الشوكة من يده، أو سكب الحليب من كأسه أو حتى اتسخت مفرشة الطاولة.

ذات العين الواحدة

هذه القصة وقعت في كوريا، وتناقلتها الصحف الكورية في مطلع القرن الماضي دون الإشارة إلى اسم مؤلفها، ثم تناقلتها المواقع الألكترونية الإنكليزية المتخصصة في فن القصة، ومنها نقلتها إلى العربية في مطلع 2003 للميلاد.

* * *

كانت أمي بعين واحدة، كرهتها لأنها سببت لي إحراجاً شديداً، كانت تطهي الأكل للطلاب والمدرسين، لدعم أسرتنا.

وكان ذلك اليوم في مدرستي الابتدائيه، حيث جاءت لتطمئن عليّ، فأحرجتني أمام زملائي.

كيف تفعل هذا بي؟..

تجاهلتها...

بل إني رمقتها بنظرة كره وهربت عنها، وفي اليوم التالي قال لي أحد أصدقائي في الفصل بتهكم... إيييه أمك بعين واحدة.

أردت دفن نفسي، وتمنيت لو اختفت عن حياتي، واجهتها ذات يوم... قلت لها إذا جعلتيني أضحوكة لزملائي، فلِما لا تموتي.. وتريحيني...

لم تنبس ببنت شفة، أما أنا فلم أعد ولو لثانية في التفكير فيما قلت لها. كنت مضرجاً بالغضب، فلم أبال بمشاعرها.

كنت أرغب في ترك البيت، وأن لا يكون لي بها صلة. اجتهدت

في دراستي حتى حصلت على بعثة في العاصمة.

تزوجت، واشتريت مسكناً خاصاً بي، ملأته بالأطفال وعشت في سعادة وراحة مع أطفالي.

ذات مساء.. طرق الباب بهدوء، إذ بها هي جاءت لزيارتي وزيارة أبنائي (أحفادها) وقد ابتعدت عنها لسنين..

وبينما هي واقفة أمام الباب، سقط أحد أبنائي من شدة الضحك، والآخر هرب من الفزع، أطليت نحوها، فصرخت بأعلى صوتي، كيف تحضرين إلى داري بلا دعوة، ابتعدي الآن..

أجابت بهدوء، آسفة لقد أخطأت العنوان...

ذات يوم، جاءتني دعوة من المدرسة، للقاء الأصدقاء القدماء، فكذبت على زوجتي قلت لها أنني سأذهب في رحلة عمل. وبعد اللقاء، ذهبت إلى البيت القديم بداعي الفضول.

قال الجيران، لقد ماتت، ولم أذرف دمعة واحدة، فسلموني رسالة منها قد كتبتها الي.

« إلى ابني العزيز..

لطالما فكرت فيك في كل الأوقات، أتأسف لأنني جئت إلى بيتك وأخفت أبناءك. فرحت حينما عرفت أنك قادم إلى لقاء أصحابك في المدرسة، لكن قد لا أستطيع النهوض من سريري لرؤيتك، أنا أتأسف لأني سببت لك الإحراج وأنت تكبر. هل تعلم، أنك أصبت في حادث وأنت طفل، فقدت فيه أحد عينيك، وكأم، لم أستطيع رؤيتك تكبر بعين واحدة، فتبرعت لك بعيني، وكم كنت سعيدة وأنا أراك – يا بني – تجول العالم الجديد وتراه بعيني التي تبرعت لك بها وأنا لم أبرح مكاني.

مع حبي لك..

أمك... ذات العين واحدة.

من كتاب اللّه

قال تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ [النِّساء: 36

وقال تعالى:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 23].

وقال تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان:14].

من أقوال المصطفى

عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: «سألت النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم-: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: الصَّلاة على وقتها، قال: ثمَّ أي؟ قال: ثمَّ برُّ الوالدين، قال: ثمَّ أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله». (متفقٌ عليه)

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم: «رغم أنف، ثمَّ رغم أنف، ثمَّ رغم أنف قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنَّة». (رواه مسلم)

عن معاوية بن جاهمة السلمي رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، إني كنت أردت الجهاد معك، أبتغي وجه الله والدار الآخرة،

قال: ويحك، أحية أمك؟

قلت: نعم،

قال: ارجع فبرّها

ثم أتيته من الجانب الآخر، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة،

قال: ويحك، أحية أمك؟

قلت: نعم يا رسول الله، قال: فارجع إليها فبرّها.

ثم أتيته من أمامه،

فقلت: يا رسول الله، إني كنت أردت الجهاد معك، أبتغي بذلك وجه اللهَ والدار الآخرة،

قال: ويحك، أحية أمك؟

قلت: نعم يا رسول الله،

قال: ويحك، الزم رجلَها فثمّ الجنة. رواه أحمد والنسائي بلفظ وصححه الألباني.

قدم أبو موسى الأشعري وأبو عامر على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فبايعاه وأسلما، قال لهما عليه الصلاة والسلام: ما فعلت امرأة منكم تدعى كذا وكذا؟ قالوا: تركناها في أهلها،

قال: فإنه قد غفِر لها

قالوا: بم يا رسول الله؟

قال: ببرها والدتها.

قال: كانت لها أم عجوز كبيرة، فجاءهم النذير: إن العدوّ يريد أن يغير عليكم، فجعلت تحمل أمها على ظهرها، فإذا أعيت وضعتها، ثم ألزقت بطنها ببعض أمها وجعلت رجليها تحت رجلي أمها من الرمضاء حتى نجت. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه.

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: أتى رجل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله، إني جئت أريد الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة، ولقد أتيت وإن والدي ليبكيان،

قال: فارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما. رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: رضا الرّب من رضا الوالد، وسخط الرّب في سخط الوالد. (رواه الترمذي)

عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه. (رواه الترمذي)

وفي الصحيحين: أن رجلاً أتى إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟

قال: أمك.

قال: ثم من؟

قال: أمك.

قال: ثم من؟

قال: أمك.

قال: ثم من؟

قال: أبوك.

قصص من التأريخ

أمية الكناني

أمية الكناني كان رجلاً من سادات قومه وكان له ابن يسمى كلاباً.

هاجر كلاب إلى المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه.. فأقام بها مدة ثم لقي ذات يوم بعض الصحابة فسألهم أي الأعمال أفضل في الإسلام فقالوا: الجهاد فذهب إلى عمر يريد الغزو فأرسله عمر رضي الله عنه إلى جيش مع بلاد الفرس فلما علم أبوه بذلك تعلّق به وقال له: 'لا تدع أباك وأمك الشيخين الضعيفين، ربياك صغيراً، حتى إذا احتاجا إليك تركتهما؟

فقال: أترككما لما هو خير لي، ثم خرج غازياً بعد أن أرضى أباه، فأبطأ في الغزو وتأخر.وكان أبوه وأمه يجلسان يوماً ما في ظل نخل لهم وإذا حمامة تدعو فرخها الصغير وتلهو معه وتروح وتجئ، فرآها الشيخ فبكى فرأته العجوز يبكي فبكت ثم أصاب الشيخ ضعف في بصره، فلما تأخر ولده كثيراً ذهب إلى عمر رضي الله عنه ودخل عليه المسجد وقال:

والله يا ابن الخطاب لئن لم ترد علي ولدي لأدعون عليك في عرفات، فكتب عمر رضي الله عنه برد ولده إليه، فلما قدم ودخل عليه قال له عمر:

- ما بلغ برّك بأبيك؟

قال كلاب: كنت أُفضله وأكفيه أمره وكنت إن أردت أن أحلب له لبناً أجيء إلى أغزر ناقة في أبله فأريحها وأتركها حتى تستقر ثم أغسل أخلافها -أي ضروعها- حتى تبرد ثم أحلب له فأسقيه.

فبعث عمر إلى أبيه فجاء الرجل فدخل على عمر رضي الله عنه وهو يتهاوى وقد ضعف بصره وانحنى ظهره

وقال له عمر رضي الله عنه: كيف أنت يا أبا كلاب؟

قال: كما ترى يا أمير المؤمنين

فقال: ما أحب الأشياء إليك اليوم

قال: ما أحب اليوم شيئاً، ما أفرح بخير ولا يسوؤني شر

فقال عمر: فلا شيء آخر؟

قال: بلى أحب أن كلاباً ولدي عندي فأشمه شمة وأضمه ضمة قبل أن أموت.

فبكى رضي الله عنه وقال: ستبلغ ما تحب إن شاء الله. ثم أمر كلاباً أن يخرج ويحلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث بلبنها إليه فقام ففعل ذلك ثم جاء وناول الإناء إلى عمر فأخذه رضي الله عنه.

وقال أشرب يا أبا كلاب فلما تناول الإناء ليشرب وقرّبه من فمه

قال: والله يا أمير المؤمنين إني لأشم رائحة يدي كلاب

فبكى عمر رضي الله عنه وقال: هذا كلاب عندك وقد جئناك به، فوثب إلى ابنه وهو يضمه ويعانقه وهو يبكي فجعل عمر رضي الله عنه والحاضرون يبكون

ثم قال عمر: يا بني الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا ثم اعتنى بشأن نفسك بعدهما.

الفضل بن يحيى

وقد روى «المأمون» أنه لم ير أحد أبر من «الفضل بن يحيى» بأبيه. فقد كان أبوه لا يتوضأ إلا بماء ساخن، فلما دخلا السجن منعهما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة، فلما نام أبوه قام الفضل وأخذ إناء الماء وأدناه من المصباح فلم يزل قائماً به حتى طلع الفجر، فقام أبوه فصب عليه الماء الدافئ، فلما كانت الليلة الأخرى أخفى السجان المصباح فقام الفضل فأخذ الإناء فأدخله تحت ثيابه ووضعه على بطنه حتى يدفأ بحرارة بطنه متحملاً بذلك برودة الماء والجو.

أويس بن عامر المرادي

أويس بن عامر القرني رجل أنبأ النبي – صلى الله عليه وسلم – بظهوره، وكشف عن عظيم منزلته عند الله ورسوله، وأمر الصحابة الأخيار بالتماس دعوته وابتغاء القربى إلى الله بها، وما كانت آيته إلا برُّه بأمه.

روى مسلم في صحيحه: كان عمر – رضي الله عنه – إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم، أفيكم أويس بن عامر؟! حتى أتى على أويس بن عامر..

فقال: أنت أويس بن عامر؟!

قال: نعم..

قال: من مراد؟!

قال: نعم، قال: كان بك برَص فبرأت منه إلا موضع درهم؟!

قال: نعم..

قال: لك والدة؟!

قال: نعم.

قال: سمعت رسول الله يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قرن، كان به أثرُ برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدةٌ هو بارٌّ بها، لو أقسم على الله لأبرَّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» فاستغفر لي، فاستغفرَ له،

فقال له عمر: أين تريد؟!

قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟!

قال: أكون في غبراء الناس أحبُّ إليَّ،

قال أصبغ بن زيد: إنما منع أويسًا أن يَقدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - برُّه بأمه.

أبو الحسن علي بن الحسين زين العابدين - رضي الله عنهم -

أبو الحسن علي بن الحسين زين العابدين- رضي الله عنهم-: كان كثير البرِّ بأمه، حتى قيل له: إنك من أبرِّ الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها في صحفةٍ، فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها.

أسامه بن زيد - رضي الله عنه -

قال محمد بن سيرين: بلغت النخلة على عهد عثمان رضي الله عنه ألف درهم، فعمد أسامة بن زيد رضي الله عنهما إلى نخلة فاشتراها، فنقرها وأخرج جمّارها، فأطعمها أمه، فقالوا له: ما يحملك على هذا وأنت ترى النخلة قد بلغت ألف درهم؟! قال: إن أمي سألتني ولا تسألني شيئًا أقدر عليه إلا أعطيتها.

ابن عباس – رضي الله عنه –

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسبًا إلا فتح الله بابين – يعني من الجنة – وإن كان واحدًا فواحد، وإن أغضب أحدهما لم يرض الله عنه حتى يرضى عنه، قيل: وإن ظلما؟ قال: (وإن ظلما).

ابن مسعود

عن أنس بن نضر الأشجعي قال: استقت أم ابن مسعود – رضي الله عنها – ماءً في بعض الليالي، فجاءها بالماء فوجدها قد ذهب بها النوم، فثبت عند رأسها حتى أصبح.

تم بحمد الله